المجاعات والأوبئة بالأندلس وآثارها في ضوء المصادر العربية بالفترة من ١٣٨هـ/٧٥٦م ٤٢٢هـ-/١٠٣١ م.

بقلم

د. شيماء عبد الحميد البنا

مدرس بقسم التاريخ

كلية الآداب جامعة دمنهور

المجاعات والأوبئة بالأندلس وآثارها في ضوء المصادر العربية بالفترة من ١٣٨هـ/٧٥٦م- ٤٢٢هـ-/١٠٣١ م.

بقلم د. شيماء عبد الحميد البنا
مدرس بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة دمنهور، مصر.
البريد الإلكتروني: shaymaa.elbana@art.dmu.edu.eg

ملخص: يعتبر جزء كبير من هذه الأحداث – الأوبئة و المجاعات– رسالة ربانية موجهة من الله –ﷻ– إلى البشرية ليسمع نداءهم وأصواتهم ، ملخص هذه الرسالة أن يستوقف الانسان نفسه برهةَ ويسترجعها؛ كي يتأمل في الأمر، ويصل بكثرة تفكيره، وطول تأمله للسبب الحقيقي وراء كل هذا، ألا وهو تقصيره وتفريطه في جنب خالقه وحق رازقه ومولاه، وبهذا يكون قد اعترف بكل ذنوبه اعترافاً يحمله على التضرع إلى الله –ﷻ–، والتوسل إليه؛ طلبا منه النجاة فهي– الأوبئة و المجاعات– جرس إنذار للبشرية، عندئذٍ يتقبل الله منه، ويعفو ويصفح عنه .

كما أن هذا الموضوع من الموضوعات الحياتية والمصيرية التي نحياها؛ حيث إنه يترتب عليه مصير بشرية أو أمة بأكملها في تلك الفترة الحرجة؛ فهي نوع من أنواع التهديدات الخطيرة للأمن الغذائي خاصة لصغار السن، كما أنها تتحكم في سلوكيات الأمة وتعاملاتها.

فهذه الأحداث تعتبر تجربة صعبة وقاسية مرت بها الأمم على مر العصور، ولها تأثير كبير جداً على كل شيء يحيط بالإنسان، وكان التأثير الأكبر لها على الحالة النفسية السيئة للبشرية. والكارثة تكمن في أن الأثر النفسي ليس له صوت مسموع ولا أنفاس محسوسة، لأنها حاجة خاصة بالنفس الداخلية للإنسان، والنفس لا تتكلم على عكس الشكاية العضوية، لكننا نستطيع ترجمة الحالة النفسية للشخص من خلال أقواله وأفعاله ؛فهي الكاشفة عن تلك الحالة النفسية ،كما أن الأثر النفسي لا يزول إلا بالنسيان أو بزوال أسبابه، وهذا ما قام به معظم أمراء وخلفاء الدولة الأموية سعياً منهم للقضاء على المجاعات والأوبئة وزوال أي أثر لها. ولذا يعتبر المرض النفسي أشد من المرض العضوي.

لم يكن الأثر النفسي السيء المترتب على المجاعات والأوبئة في تلك الفترة للعامة فقد، فقد كان لها تأثير كبير أيضاً على الأمراء والخلفاء ولذا كانوا يسعون جاهدين

من أجل ايجاد الحلول؛ لدرجة جعلتهم يكرسون بعض رجال الدولة كالعلماء والفقهاء جهدهم من أجل التخفيف على الأهالي بصور متعددة.

فإذا نظرنا لهذا الموضوع نجد أن الأوبئة والمجاعات حدثين متلازمين، فبعد كل مجاعة يحدث وباء وبعد كل وباء تحدث مجاعة والنتيجة لهما واحدة وهى الخوف والفزع والرعب لما لهما من تأثير خطير يهدد البشرية، والفقر والمرض، وتنهى هذه القصة أحياناً كثيرة بالموت.

لم يقتصر تأثير المجاعات والأوبئة على التأثير النفسي فقط؛ فقد كان لها تأثير سياسي واقتصادي واجتماعي أيضاً، ولكن كان للتأثير النفسي الحظ أكبر والتأثير الأخطر.

المجاعات ظاهرة اجتماعية خطيرة يتسبب وجودها في إفساد وتدمير المجتمع؛ لما لها من عواقب مثل السرقات وغيرها. ولذا كانت سُبل المسلمين من أجل التخلص من المجاعات وعواقبها النفسية كثيرة فمنها الصلاة والدعاء والتضرع إلى الله، والتصدق والإنفاق وأحيانا وجدوا الحل في الهجرة وأحيانا أخرى في إقامة علاقات مع دول مجاورة وأيضاً ابتداع وابتكار طرق للتخزين...الخ.

لقد عانت الأندلس في فترة عصر الدولة الأموية بالأندلس(١٣٨هـ- ٤٢٢هـ /٧٥٦م-١٠٣١م) من عدة أزمات متعددة الجوانب و التي بدأت في عهد عبد الرحمن الداخل وانتهت في عهد هشام المؤيد ، فقد كان للمجاعات والأوبئة والأمراض نصيب الأسد من هذه الازمات والتي ترتب عليها أزمات اقتصادية وهذا لتعطل الحياة الاقتصادية، ومما زاد من سوء الأوضاع أحياناً كثيرة في الأندلس في تلك الفترة هو حدوث المجاعات وما يتبعها من حدوث الأوبئة، ومما زاد الطين بلة معاصرة كل هذا للفتن والثورات والحروب؛ الأمر الذي تسبب في حدوث أزمة فعلية في البلاد وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل.

الكلمات المفتاحية: المجاعة – الوباء – القحط –الاستسقاء –الأثر النفسي – الطاعون – عبد الرحمن الناصر – احتباس المطر.

Hunger and Epidemics in Andalusia and its implications in the Light of the Arabic Sources from 138-422C E to 756-1031 AH

shaymaa Abdul Hamid Al-Banna
Lecturer, Department of History, Faculty of Arts, Damanhour University, Egypt.
Email: shaymaa.elbana@art.dmu.edu.eg

Abstract: A large part of these events - plagues and famines - is a divine message addressed by God to mankind to hear their call and their voices, the summary of this message is that a person pauses himself for a while and takes it back. In order to meditate on the matter, and to reach the abundance of his thinking and the length of his contemplation of the real reason behind all this, namely, his negligence and negligence in the side of his Creator and the right of his provider and master, and by this he has confessed all his sins as a confession that leads him to beseech God--, and to beg Him A request for his salvation is - plagues and famines - a warning bell for humanity, then God accepts him, pardons and pardons him.

Also, this topic is one of the life and fateful issues that we live in. As it entails the fate of humanity or an entire nation in that critical period; They are a type of serious threat to food security, especially for the young, as they control the nation's behavior and dealings.

These events are considered a difficult and cruel experience that nations have gone through throughout the ages, and they have a very great impact on everything that surrounds mankind, and the greatest impact was on the bad psychological state of humanity. The catastrophe lies in the fact that the psychological impact has neither an audible voice nor a palpable breath, because it is a special need for the inner soul of the person, and the soul does not speak in contrast to the organic complaint, but we can translate the psychological state of the person through his words and actions, as it reveals that psychological state. The psychological does not disappear without forgetfulness or the demise of its causes, and this is what most of the princes and caliphs of the Umayyad state did, seeking to eliminate famines and epidemics and eliminate any trace of them. Therefore, mental illness is more severe than organic disease.

The negative psychological impact of famines and epidemics in that period was not for the public, as it had a great impact on the princes and caliphs, and therefore they were striving to find solutions to the extent that they made some statesmen, such as scholars and jurists, devote their efforts to alleviate the people in multiple ways.

If we look at this issue, we find that epidemics and famines are two events that go hand in hand, after every famine an epidemic occurs, and after every epidemic there occurs famine and the result for them is the same, which is fear, panic and horror because of their dangerous impact that threatens humanity, poverty and disease, and this story often ends with death.

The impact of famines and epidemics was not limited to psychological impact alone; It had a political, economic and social impact as well, but the psychological impact had greater luck and the most dangerous impact.

Famine is a dangerous social phenomenon whose existence corrupts and destroys society. Because of its consequences such as thefts and other things, and therefore the ways for Muslims to get rid of famines and their psychological consequences are many, including prayer, supplication, supplication to God, charity and spending, and sometimes they found the solution in immigration and other times in establishing relations with neighboring countries and also inventing and inventing methods of storage ... .etc.

Andalusia during the period of the Umayyad state in Andalusia (138 AH - 422 AH / 756 AD - 1031 AD) suffered from several multi-faceted crises that began during the reign of Abd al-Rahman al-Dakhil and ended during the reign of Hisham al-Muayyad. Economic crises and this disrupts economic life. And what worsened the situation many times in Andalusia during that period was the occurrence of famines and the subsequent occurrence of epidemics, and what made matters worse for contemporary misfortune all this of sedition, revolutions and wars; Which caused an actual crisis in the country and we will talk about that in detail.

Key words: famine - epidemic - drought - dropsy - psychological impact - plague - Abdul Rahman Al-Nasser - rain retention.

إن الله -ﷻ- إذا بسط رزقه وأغدق نِعَمه وأجزل بركاته أَحَب أن يُشكر عليها، وإذا زَواها وقبضها أحب أن يُسألها ويُضرَع إليه فيها، و"هو الرزاق ذو القوة المتين".

مُقَدِّمَة

يعتبر جزء كبير من هذه الأحداث – الأوبئة والمجاعات – رسالة ربانية موجهة من الله –ﷻ– إلى البشرية؛ ليسمع نداءهم وأصواتهم، وملخص هذه الرسالة أن يستوقف الإنسان نفسه برهةَ ويسترجعها؛ كي يتأمل في الأمر، ويصل بكثرة تفكيره، وطول تأمله للسبب الحقيقي وراء كل هذا، ألا وهو تقصيره وتفريطه في جنب خالقه وحق رازقه ومولاه، وبهذا يكون قد اعترف بكل ذنوبه اعترافاً يحمله على التضرع إلى الله –ﷻ–، والتوسل إليه؛ طلبا منه النجاة، فهي – الأوبئة والمجاعات– جرس إنذار للبشرية، عندئذٍ يتقبل الله منه، ويعفو ويصفح عنه.

كما أن هذا الموضوع من الموضوعات الحياتية والمصيرية التي نحياها؛ حيث إنه يترتب عليه مصير بشرية أو أمة بأكملها في تلك الفترة الحرجة؛ فهو نوع من أنواع التهديدات الخطيرة للأمن الغذائي، خاصة لصغار السن، كما أنه يتحكم في سلوكيات الأمة وتعاملاتها.

فهذه الأحداث تعتبر تجربة صعبة وقاسية مرت بها الأمم على مر العصور، ولها تأثير كبير جدًّا على كل شيء يحيط بالإنسان، وكان التأثير الأكبر لها على الحالة النفسية السيئة للبشرية. والكارثة تكمن في أن الأثر النفسي ليس له صوت مسموع ولا أنفاس محسوسة؛ لأنها حاجة خاصة بالنفس الداخلية للإنسان، والنفس لا تتكلم على عكس الشكاية العضوية، لكننا نستطيع ترجمة الحالة النفسية للشخص من خلال أقواله وأفعاله؛ فهي الكاشفة عن تلك الحالة النفسية، كما أن الأثر النفسي لا يزول إلا بالنسيان أو بزوال أسبابه، وهذا ما قام به معظم أمراء وخلفاء الدولة الأموية؛ سعيًا منهم للقضاء على المجاعات والأوبئة وزوال أي أثر لها.

لم يكن الأثر النفسي السيء المترتب على المجاعات والأوبئة في تلك الفترة للعامة فقط، فقد كان لها تأثير كبير أيضًا على الأمراء والخلفاء؛ ولذا كانوا

يسعون جاهدين من أجل ايجاد الحلول؛ لدرجة جعلتهم يكرسون جهد بعض رجال الدولة كالعلماء والفقهاء من أجل التخفيف على الأهالي بصور متعددة .

فإذا نظرنا لهذا الموضوع نجد أن الأوبئة والمجاعات حدثان متلازمان، فبعد كل مجاعة يحدث وباء، وبعد كل وباء تحدث مجاعة، والنتيجة لهما واحدة، وهى الخوف والفزع والرعب؛ لما لهما من تأثير خطير يهدد البشرية، والفقر والمرض، وتنهى هذه القصة أحيانًا كثيرة بالموت.

لم يقتصر تأثير المجاعات والأوبئة على التأثير النفسي فقط؛ فقد كان لها تأثير سياسي واقتصادي واجتماعي أيضًا، ولكن كان للتأثير النفسي الحظ الأكبر والتأثير الأخطر .

المجاعات ظاهرة اجتماعية خطيرة، يتسبب وجودها في إفساد وتدمير المجتمع؛ لما لها من عواقب خطيرة، مثل السرقات وغيرها؛ ولذا كانت سُبل المسلمين من أجل التخلص من المجاعات وعواقبها النفسية كثيرة، فمنها: الصلاة والدعاء والتضرع إلى الله، والتصدق والإنفاق، وأحيانا وجدوا الحل في الهجرة، وأحيانا أخرى في إقامة علاقات مع دول مجاورة، وأيضًا ابتداع وابتكار طرق للتخزين .... إلخ.

لقد عانت الأندلس في فترة عصر الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨هـ – ٤٢٢هـ /٧٥٦م–١٠٣١م) من عدة أزمات متعددة الجوانب، والتي بدأت في عهد عبد الرحمن الداخل، وانتهت في عهد هشام المؤيد، فقد كان للمجاعات والأوبئة والأمراض نصيب الأسد من هذه الأزمات، والتي ترتب عليها أزمات اقتصادية؛ وهذا لتعطل الحياة الاقتصادية، ومما زاد من سوء الأوضاع أحيانًا كثيرة في الأندلس في تلك الفترة هو حدوث المجاعات وما يتبعها من حدوث الأوبئة، ومما زاد الطين بلة معاصرةُ كل هذا للفتن والثورات والحروب؛ الأمر الذي تسبب في حدوث أزمة فعلية في البلاد، وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل.

ولم يكن في مقدور تلك الأزمة نفي ما عُرف عن الأندلس من نقاء وصفاء الأجواء وحسن البيئة الأندلسية؛ مما يجعلنا ننكر كل إيجابياتها، بل بالعكس كانت الأندلس تتمتع بالعديد من المميزات والمحاسن، وهذا ما تحدثت عنه كتب الجغرافية والتاريخ كثيرًا.

ويمكن إرجاع السبب في هذه المجاعات والأوبئة والمحن التي تعرضت لها الأندلس تلك الفترة إلى أسباب طبيعة لم تكن الحكومة تعمل لها حُسبان؛ لأن هذه الأمور لم يكن لها أي مقدمات، بحيث تعطي فرصة لزرع أسباب الوقاية والنجاة، وعلى الرغم من ذلك كان للحكومة دور كبير في التصدي لهذه المحن والأزمات والتغلب على معظمها، وهذا ما سنوضحه فيما بعد.

أما بالنسبة للفترة الزمنية للبحث فنجدها تمتد خلال فترة عصر الدولة الأموية بالأندلس وهى ١٣٨هـ/٧٥٦م- ٤٢٢هـ-/١٠٣١ م، أي: حوالى ٢٨٤سنة، وقد وقع الاختيار على هذه المدة بالتحديد؛ لأنها فترة التأسيس والبنيان والقوة، وتعرضها لأى خطر من الأخطار - حتى ولو كان بسيطًا - يعتبر أمرًا صعبًا، ويهدد أمن الدولة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى للتأمل في قدرة الدولة في التعامل مع مثل هذه الكوارث والأزمات والتخلص منها بأقل الخسائر، ولذا وددتُ إبراز دور الأمراء والخلفاء الأمويين في القضاء على هذه الكوارث، رغم أنها لم تكن الخطر الوحيد الذى يهددهم؛ فقد كان هناك أخطار أخرى كثيرة؛ فيحسب للدولة الأموية ما قامت به في تلك الفترة، فقد قامت بالتأسيس وبناء الدولة، ونجحت في الحماية والقضاء على الفتن والثورات والطامعين الداخليين والخارجيين، وبرعت في الأبنية والعمارة، وعلى الرغم من كل هذا كانت على أتم استعداد لكل خطر .

هذا كله يرجع إلى خطة منظمة ومحكمة؛ لذلك لم يحدث للدولة الأموية - آنذاك - أي نوع من أنواع الإزعاج أو الارتباك أثناء حدوث المجاعات والأوبئة، على الرغم من حدوث الكثير من المجاعات التي وصل عددهما في تلك الفترة تقريبًا إلى سبع عشرة مجاعة، وحوالى سبعة أوبئة .

وهنا وقبل الدخول في تفاصيل الموضوع لا بُدَّ من وضع تعريف لبعض الكلمات، كالأزمة النفسية، والمجاعة، والوباء، وتوضيح هل هناك فرق بين الوباء والطاعون أم لا ؟

فمصطلح الأزمة النفسية يعنى الشدة، وهى نقطة تحول إلى الأفضل أو الأسوأ بسبب مرض أو خلل في الوظائف، أو تغيير جذري في حياة الإنسان بسبب أوضاع غير سوية وغير مستقرة [١].

وكلمة المَجَاعَة والجوع: هي اسم للمخمصة، وهو نقيض الشبع [٢]، فهي تعني الندرة والقلة في الغذاء، والذى يعد عصب الحياة، وأسباب هذه الندرة كثيرة، فقد تكون الحروب والثورات والفتن فتصبح أيضًا سلاحًا يفتك بالناس، ويجعلهم في عجز عن المقاومة والثبات؛ ليدفعهم في النهاية للاستسلام، وأيضًا التضخم السكاني، والفشل الزراعي، والضرائب والجبايات التي تفرضها الدول على الرعية والتي ترهق كاهلهم؛ فيضعف بذلك إعمار الأراضي، وتقل الأقوات وتغلو، فتقع المجاعة، وكلها أسباب بشرية، وأما بالنسبة للأسباب الطبيعية فهي كثيرة أيضًا، مثل: حالات الجفاف، وانحباس الأمطار؛ وما ينتج عنه من قلة الإنتاج الزراعي وارتفاع الأسعار، وكذلك هجوم أسراب الجراد وتدميرها للمحاصيل الزراعية، أو انتشار الأمراض الفتاكة بين الناس؛ فيقعدهم المرض عن أداء أعمالهم؛ مما يتسبب في تعطيل الأسواق، وإغلاق المحال، وعجز الفلاحين عن العناية بالإنتاج الزراعي؛ وبذلك تشل الحياة العامة [٣].

---

١) فاطمة عبد الرحيم النوايسة، الضغوط والأزمات النفسية وأساليب المساندة، الطبعة الأولى ،٢٠١١، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ص١٨٤.

٢) محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري ابن منظور، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، الجزء الثاني، دار التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ص٢٠.

٣) نغم عدنان أحمد الكرجى، الأزمات الاقتصادية في الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الكتاب الثقافي، ص١٦٧.

ومما سبق يتبين لنا أن المجاعة عبارة عن أزمة تأزمت الحياة وصعبت بوجودها، وتسببت في الألم الشديد للناس وإيذائهم، خاصة أنها كانت أزمة مفاجئة أدت لتغير كثير من أوضاعهم المألوفة والمحببة إليهم .

أما بالنسبة لتعريف كلمة الوباء فيجب علينا أن نبين أن هناك فرقًا كبيرًا بين الطاعون والوباء؛ فالطاعون: مرض معدى يتسبب عن بكتيريا قصيرة بيضوية، تنتقل إلى الإنسان والقوارض بواسطة البراغيث . ولقد حصل الطاعون على موجات عاتية خلال التاريخ، وسُمِّي الموت الأسود؛ لأنه يحيل الحياة أثرًا بعد عين؛ فلا يبقي ولا يذر، وتحدث الإصابة بواسطة البرغوث؛ حيث يتغذى من فأر مصاب، فيمتص دمه المصاب بالبكتيريا، وتتكاثر البكتيريا في معدة البرغوث، وعندما يلدغ البرغوثُ الإنسانَ فإن المعدة المثقلة بالبكتيريا تقذف بعض محتوياتها إلى مكان اللدغة، وتنتشر في دم الإنسان . والطاعون على أنواع أهمهما :-

- الطاعون الدبلي، ويتميز بالحرارة، وتضخم العقد الليمفية، خاصةً في الإرب، وتحت الإبط، ويتضخم الطحال كذلك، ونسبة الوفاة فيه ٤٠%.
- الطاعون الرئوي القاتل، وطريقة الإصابة به المباشرة عن طريق رذاذ مصاب آخر، ونسبة الوفاة ١٠٠%.
- الطاعون الدموي، وهو حرارة وطفح على الجلد، وأعصاب ثائرة، ومرض منتشر بكل أنحاء الجسم، ونسبة الوفاة ٧٠% . وغير ذلك من الأنواع .
- وأول عنصر من عناصر الوقاية هنا هو الحجر الصحي؛ فقد قال الرسول -ﷺ-: "**إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها، وإن لم تكونوا فيها فلا تدخلوها** " .

ولم يكتف الإسلام بذلك، بل رسّخ قانون الحجر الصحي لمقاومة الوباء، ليشمل الحيوان والنبات، فقال رسول الله -ﷺ- : "**لا يورَد**

ممـرَض علـى مصِـح"، أي: لا يـورد صـاحب الإبـل المريضـة علـى صـاحب الإبل السليمة؛ فتنتقل العدوى إلـى السليم من المريض، كما نهـى الإسـلام عـن بيـع الثمـار وشـرائها وقـت الجـوائح والآفـات التـي تصيب الثمار [١].

أمـا بالنسبة لتعريف الوبـاء، فمعنـاه فـي اللغـة: كُل مَرض عام، وهنـاك علامات تنذر بالوباء مما يدل على أن الوباء من الأشياء التي تجرى مجرى الأسباب، منهـا: أن تكثر الرجوم والشـهب فـي أوائل الخريف، وفـى أيلـول[٢]، فإنـه منـذر بالوبـاء الحـادث إنذار السبب، وأيضًـا كلمـا رأيت خثورة من الهواء وضبابية، وظننت مطرًا ووجدته مغبراً يابسًا لا يمطر فاعلم أن مزاج الشتاء فاسد . وأمـا الوبـاء الصيفي الخبيث الرديء فيدل عليه قلة المطر فـي الربيع مع برد، وإذا رأيت الجنوب يكثر ويكدر الهواء أيامًا ثم يصفو بعده أسبوعًا فما فوقه، ثم يحدث برد ليل ومد نهار وغمة وكدورة وحرارة، فقد جاء الوبـاء، فتوقع حميات الوباء والجدري ونحوه، وكذلك إذا لم يكن الصيف شديد الحرارة، وكان شديد الكدورة مغير الأشجار، وكـان سلف فـي الخريف شـهب ونيران ونيـازك فهو علامـة وبـاء، وكذلك إذا رأيت الهواء يتغير فـي اليوم الواحد مرات كثيرة، ويصفو الهواء يومًا وتطلع الشمس صافية، وتكدر يومًا آخر وتطلع في جلباب من الغبرة فاحكم بأن وباء يحدث .

١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر/ابن كثير الدمشقي، جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سـنن، تعليـق عبـد المعطـى أمـين قلعجـى، الجـزء الاول، دار الكتـب العلميـة، بيـروت، ص١٠٧-١٠٨.

٢) شهر سبتمبر.

وإذا وصف المرض على أنه مرض وبائي، فإنه يعني في مصطلح علم الطب أن هذا المرض سريع الانتشار، مهاجم لأعداد كبيرة من البشر أو الحيوانات، في وقت واحد، ضمن منطقة أو إقليم واحد[١] .

وهنا وبعد توضيح المقصود بالعنوان وقبل الدخول في تفاصيل البحث لا بُدَّ من إبراز بعض خيرات، وبعض مميزات الأندلس، وأهم ما تشتهر به؛ كي لا نحكم عليها بأنها بلد فقيرة معدمة، ويظهر لنا ذلك بداية من موقعها؛ فهي تقع في رَبْعٍ معمور بالدنيا، ومتوسطة البلدان، كريمة البقعة، طيبة التربة، خصبة، منفجرة بالأنهار، قليلة الهوام [٢] ذوات السموم، معتدلة الهواء أكثر الأزمان، لا يزيد قيظها [٣] زيادة منكرة تضر بالأبدان، وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتى على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال، وفواكهها كثيرة على مدار العام، ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد، كما أن بها بعض أنواع الاشجار التي كان يقال: إنها لا توجد إلا بالهند، وأيضا عود الألنجوج[٤] الذى يفوق العود الهندي، كما يتوافر بها القسط الطيب[٥]، والسنبل،

---

١) أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن سينا، القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين الضناوى، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية، ص٨٩؛ علي القصير، كتاب الأمان من فتن وأوبئة الزمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٩، القاهرة، ص١١-١٢.

٢) الحشرات المؤذية.

٣) فترة شديدة الحر.

٤) الألنجوج: هو عود جيد طيب الريح، يتبخر به . المقري، نفح الطيب، مراجعة مريم قاسم طويل، الجزء الأول، ص١٤١.

٥) القسط: هو العود الذى يكون بداخل البخور، كما يوجد بالسند أشياء أخرى تتميز بها. القنا: جنس زهر من فصيلة القنويّات، ومن وحيدات الفَلْقة، ساقه قويَّة، أوراقه كبيرة بيضويَّة الشكل، وأزهاره مُختلفة اللون، يُستخرج منه صِبْغ أحمر، يُزرع في الحدائق للتزْيين، والخيزران : نبات من الفصيلة النجيليَّة، ليّن القضبان، أملس العيدَان، استخدمت أعواده في صناعة مواد الكتابة في الشرق الأقصى . القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص٦٣.

والجنطيانة[١] تُحْمَلُ من الأندلس إلى جميع الآفاق، وأطيب كهرباء الأرض بشذونة، وحجز اللازورد الجيد، ومعدن البلور، وحجر البجادى[٢] والياقوت الأحمر، وحجر المغناطيس وحجر الشاذنة، وحجر اليهودي، وحجر المرقشيثا الذهبية، لا نظير له في الدنيا، وحجر اللؤلؤ، ومعادن الذهب والفضة، وغيرها من المعادن[٣].

مما سبق يتبين لنا أن الأندلس بلد إسلامي غني بالكثير من الأشياء الهامة، والتي تعتبر مصدر قوة لأى بلد، وعلى الرغم من كل ذلك فقد تعرض لكثير من المحن والأزمات والكوارث التي تعددت وكثرت أسبابها.

وقد عانت الأندلس من ويلات المجاعات، مثلها مثل بلدان كثيرة في تلك الفترة؛ فإن موجات المجاعات عصفت بالعديد من أرواح العامة، صحيح أن المجاعات كانت تطول كل الطبقات، غير أن طبقة الخاصة كان لها من الوسائل ما تقاوم به مثل هذه الشدائد، كتخزين الأقوات، وامتلاك الأموال التي تسهل لهم الحصول على القوت وقت الحاجة، أما العامة فلم يملكوا إلا قوتهم اليومي، ولم تكن لهم القدرة على الاختزان لمواجهة هذه الكوارث إذا ما حصلت، فقد واجهت الأندلس في عصر الإمارة عددًا من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، أشهرها المجاعات حتى تردد صدى ذلك في أمثالهم؛ فقالوا:

---

١) من العقاقير المعروفة في المغرب، وأطباء المغرب يطلقونه على جذر النبات المعروف عند الصيادلة بأوضمى. شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الجزء الأول، ص٢٣٢.

٢) وهو حجر يضيء بالليل كالمصباح. القزويني (زكريا بن محمد بن محمد، ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ص٤٩٧.

٣) أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: احسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص١٤٠-١٤٥.

"الجوع مالوا عينين"، وتعني أن الجائع يضطر إلى أكل ما يجد دون نظر أو تمييز [١].

وسوف نركز في هذا البحث على بعض أنواع ومسببات الأزمات الاقتصادية التي أثرت على استحكامات ملكية الأراضي والمنتجات الزراعية والضرائب المفروضة على الأراضي، بالإضافة إلى آثارها السلبية على الحياة العامة، مثل: المجاعات وانتشار الآفات الزراعية، بالإضافة إلى الفتن والحروب والهجمات العسكرية من الممالك الإسبانية الشمالية على الثغور الأندلسية، والتي لها آثار وخيمة على الاقتصاد الأندلسي، وقد عرضت لنا المصادر الأندلسية نماذج من تلك الأزمات التي حلت بالأندلس خلال سنوات حكم الإمارة الأموية، وموقف الأمراء وإجراءاتهم لها؛ تفاديًا لمخاطرها.

ومن أبرزها المجاعات التي أصابت الأندلس في فترة عصر الإمارة الأموية:

تعتبر المجاعات والأوبئة عبارة عن أزمات وكوارث تعرضت لها الأندلس في تلك الفترة، وذلك لأنها تسببت في جدب وقحط شديد، كما أنها أدت لإيلام الناس وإيذائهم، وهذا ما تعنيه كلمة الأزمة، وأيضًا لأنها تسببت في سوء حالة الناس؛ لشدة ما فيها من المشقة والعنت، كما أنها حالة مفجعة يتأثر من جرائها نمط الحياة اليومية، ويصبح الناس يعانون من ويلاتها، ويصيرون في حاجة إلى حماية، وهذا ما تعنيه كلمة الكوارث . كما أن المجاعات والأوبئة من النوازل؛ لأنهما شدة من شدائد الدهر تنزل بالناس، وهذا ما تعنيه الكلمة؛ لأنها تنزل على الناس من حيث لا يحتسبون، كما أنهما من الملمات؛ لأنها نازلة شديدة من شدائد الدهر، وهذا ما تعنيه الكلمة، كما أنهما جائحة؛ لأنها

١) أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الرجالى القرطبي "٦١٧-٦٩٤هـ"، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق: محمد ابن شريفة، القسم الثاني، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، ص٨٦؛ نغم عدنان أحمد الكركجى، ص١٦٧.

شدة عظيمة، والجراد من الجوائح[١]. وسواء أكان سبب حدوث الأزمات الاقتصادية طبيعيًّا أم بشريًّا، إلا أنه نتج عنها معاناة الناس، وانتشار الأمراض، ومما زاد الأمر سوءًا أنْ تدهور الأمر أكثر ليصل إلى موت أعداد كبيرة من الناس، ولا سيما الفقراء منهم؛ فهم لا ناقة لهم ولا جمل[٢].

علمًا بأنه مثلما كان لهذه النكبات من آثار سلبية سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية خطيرة، كان لها أيضاً آثار ومميزات إيجابية، من أهمها: أن قامت بعض المدن بالأندلس بابتكار بعض الطرق خاصة لحفظ وتأمين مصادر الغذاء في سنوات المجاعة، وأكبر دليل على ذلك أهالي مدينة لورقة (مرسية) Lorca [٣] كانوا يخزنون الحبوب تحت الأرض في سنوات الرخاء؛ حيث امتازت تربة المدينة بخاصية حفظ الحبوب لبضع سنوات دون أن يتلف؛ فكان خير معين لهم في السنوات العجاف [٤] .

مما سبق يتبين لنا مدى تأثير المجاعات على الحالة النفسية السيئة للبشرية وتوترهم الكبير الذي دفع بهم إلى التفكير والتدقيق من أجل الوصول لحلٍّ، مثل أهالي مدينة لورقة الذين وصلوا بتفكيرهم إلى تخزين الحبوب تحت الأرض.

---

١) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي "ت٨١٧"، القاموس المحيط، تعليقات: أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعى، راجعه: أنس محمد الشامي، وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ص٥٣، مادة أزم؛ ماهر أحمد السوسي، مقدمة في فقه الأزمات والكوارث، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٧، ص٦-٧.

٢) ابن منظور، لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، الجزء الثاني، دار التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ص٢٠؛ نغم عدنان أحمد الكركجى، الأزمات الاقتصادية في الأندلس، ص١٦٧.

٣) مدينة حديثة البناء، بناها عبد الرحمن بن الحكم، وهي حسنة الهواء، عذبة الماء، ولها عمل كثير، وبها الحرير والعصفر الطيب . مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، ص٦٧.

٤) محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ص٥١٢-٥١٣.

ولم تقتصر المميزات على ذلك، فقد عمد أهل حصن بطروش Pedroche على العناية بشجر البلوط، الذى يحيط بجبالهم وسهولهم، ويحرصون على حفظ إنتاجه من البلوط؛ حيث يكون لهم قوتًا وغياثًا وغلة في سنوات المجاعة، ولا سيما أن البلوط عندهم كان يتميز بجودة الثمرة وحسن المذاق، حتى سمى ذلك الفحص بفحص البلوط(١).

يتبين مما سبق أن الأهالي لم يكونوا حريصين على ابتداع طرق من أجل حفظ الطعام فقط، فقد ابتدعوا الطرق من أجل الحفاظ على أنفسهم وقت المجاعات، مثل: حفظ الأعشاب من أجل الدواء، كقيام أهل حصن بطروش بحفظ البلوط؛ لعلمهم جيدا أنه يدخل في علاجات كثيرة، ومما يدلل على مدى تأثير هذه المجاعات على الحالة النفسية لهم اختيارهم لمثل هذه الأشجار لتخزينها، فهي شجرة متعددة الاستخدامات والأغراض؛ فقد كانت ثمرة شجرة البلوط تستعمل للأكل، وقشور الثمار والجذور ولحاء الساق لدباغة الجلود، ومعالجة البواسير، ويستعمل خشبها في صناعة الأدوات الزراعية، وأعمال البناء، وكوقود للطبخ (٢).

وهذه الحالة لا تختلف كثيرًا عن حالة الكثيرين في تلك الفترة، فقد دفعهم الخوف والفزع إلى الإسراع إلى أماكن بيع الأودية وتخزين كميات كبيرة منها في البيوت، و قيامهم بتخزين كميات هائلة من الأطعمة في المنازل والبيوت.

المجاعات في عهد عبد الرحمن الداخل ١٣٨-٢٣٨هـ/٧٥٦-٨٥٢م:-

دخل عبد الرحمن الداخل الأندلس في أجواء غير طبيعية، وكانت الأندلس مقسمة لأحزاب، ومليئة بالثورات والنزاعات القبَليّة؛ فانغمس فيها، وقضى طوال فترة حكمه -والتي استمرت حوالى ثلاثة وثلاثين عامًا- يحاول

١) الحميري، الروض المعطار، ص٩٣؛ نغم عدنان أحمد الكركجى، الأمات الاقتصادية، ص١٦٧.

٢) درويش الشافعي، دليل الحقل والمنجنيز في التخطيط وجمع العينات، دار الخليج، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٨، ص١٨٩.

التخلص منها، وكان لهذه الثورات أثار سلبية على الحالة الاقتصادية للأندلس؛ مما أدى لحدوث بعض الكوارث، مثل المجاعات، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فشل سياسة عبد الرحمن الفهري . فمنذ عام ١٣١هـ /٧٤٨م والأندلس وأهلها يعانون من سياسة والي الأندلس عبد الرحمن بن حبيب الفهري (١٢٧-١٣٧هـ)، التي أزهقت أرواح أبرياء، وأتعبت النفوس، وسئمت الرعية من سياسة الوالي، وكان ينتظر أهل الأندلس الفرج بعد الشدة التي طالت؛ فقد ظل أهل الأندلس يعانون خمس سنوات، أي: حتى عام ١٣٦هـ/٧٥٢م، أي قبل دخول عبد الرحمن الداخل الأندلس، وقد ترتب على ذلك أن وقعت المجاعة الكبرى بالأندلس في عام ١٣٣هـ/٧٥١م؛ فذكر ابن عذارى: "في سنة ثلاث وثلاثين مئة استحكم الجوع والقحط في سنة أربع وثلاثين، وسنة خمس، وبعض سنة ست وثلاثين ومئة، فخرج أكثر الناس إلى طنجة ..."[١].

وكان من أهم الأسباب المباشرة لهذه المجاعات الحروبُ المتزايدةُ بين العرب وبعضهم البعض، وأشهرها الصراع بين القيسية واليمنية، وبين العرب والبربر، مع العلم بأن الصميل بن حاتم[٢] كان عاملا على إقليم سرقسطة، وهو الذى قام بفتح خزائنه، ولم يأته عدو ولا صديق إلا أعطاه[٣].

---

١) ابن عذارى، البيان المغرب ،تحقيق: بشار عواد مغروف، المجلد الثانى، ص٤٧.

٢) كبير القيسية، وهو الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن. أبو العباس أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المجلد الأول، ص١٤٧.

٣) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الاندلس، تحقيق: لويس مولينا، الجزء الأول، ص٧٠؛ عبد القادر بوباية، البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري، جامعة وهران، ص١١١؛ إيناس محمد البهيجي، تاريخ دولة الأندلس، مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠١٦، عمان، ص١١٨؛ محمد بشير حسن العامري، الحياة العلمية في الثغور الشمالية الأندلسية المجاورة للممالك الإسبانية (٩٥-٤٨٤هـ)، الطبعة الأولى، ٢٠١٦، ص٦١.

وقد ترتب علي هذه المجاعة هجرة بعض السكان من البربر إلى المغرب؛ مما أدى إلى توالى هجمات النصارى على ديار وسواحل المسلمين؛ مستغلة حالة الوهن والضعف التي يعيشها الشعب الأندلسي؛ فاستولوا على كثير من القلاع والحصون، ووصلوا إلى نهر دويرة El Duer[١]، كما ثار البشكنس Vascones[٢] والقوط فيما وراء جبال البرنيه[٣]، واستولوا على قواعد المسلمين

(١) نهر دويرة Duero : هو أعظم أنهار شبه الجزيرة الإيبيرية، وينبع من فوق جبال ناجرة في الشمال، ويمتد غربًا، ويصب في المحيط الأطلنطي قرب مدينة البرتقال، وينحدر من جبال قشتالة، ويسميه العرب بالوادي الجوفي.
ابن صاحب الصلاة (أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجى)، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، د، ت، ص٩٦-٦٧؛ عبد المحسن طه رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠١، ص١٣١.

(٢) البشكنس Vascones : هم سكان نافار التى كانت بنبلونة عاصمة لها، وكانوا يقيمون في الأراضي التابعة في الغالب لمملكة نبرة الواقعة شمالي نهر إبرو، وكانوا عبارة عن قبائل عديدة استولت كل واحدة منها على إقطاعية إما تابعة لمملكة الفرنجة، وإما تابعة لمملكة أشتوريس، ولم يستطع الملوك الأشتوريسيون أن يضموا كامل إقطاعياتهم إلى أراضيهم، واتخذوا من مدينة بنبلونة عاصمة لهم، فقد كان لها تأثير سياسي قوي في الأقاليم الواقعة بين جبال البرينيه ووادي نهر إبرو، وكان الأمويون على علاقة قديمة ومصاهرة بهم، كما كان الضعف يشوب إسلامهم، وهم أمة مستقلة بنفسها لهم لغتهم الخاصة بهم.
ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص٤٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الخامس، د.ت، ص٢٣٤ ؛ أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢١١-٢١٢-٢١٣؛ محمد سهيل طقوس، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص٢٠٨-٢٠٩؛ أحمد إسماعيل الجمال، دراسات في تاريخ الأندلس دويلات الصقالبة العامريين في شرق الأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٧، ص١٢٠.

(٣) وأشهر قواعدها سرقسطة Zaragoza، وطرطوشة Tortosa، وطركونة Tarragona، وبرشلونة Barcelona، ووشقة Huesca، وغيرها، وعندما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية أنشئت ولاية خامسة شمال جبال البرتات. محمد عبد الله عنان، من الفتح إلى بداية عهد الناصر، ج١، ص٧٠.

المسلمين في سبتمانيا المسلمة، وقضى على سلطان المسلمين في تلك النواحي[١].

الأثر السياسي للمجاعة:-

لفد ترتب على هذه المجاعة استغلالُ كثيرٍ من العمال ضعفَ السلطة المركزية واستقلوا بولاياتهم، كما استغل النصارى تلك الفتنة والحرب الأهلية وبدأوا يتحركون جنوبًا صوب قلاع المسلمين، ويعتقد بعض المؤرخين أن هذه المجاعة ممتدة منذ عام ١٣١هـ وحتى خمس سنوات، وهناك من يقول إنها بدأت عام ١٣٣هـ و استمرت ثلاث سنوات، وهو الرأي الأقرب للصواب، وعلى الرغم من كل هذا إلا أنه قد سلم من هذه المجاعة أهل سرقسطة؛ وهذا لاختلاف طبيعة المنطقة عن كثير من مناطق أخرى؛ لأنهم كانوا في حالة من الرغد والخير، ومن الأدلة التاريخية التي تؤكد وتشير إلى تمتع الثغر الأعلى "سرقسطة" بنشاط زراعي واسع وصفٌ من الجغرافيين؛ فقالوا عن بساتينها: إنها غاية في البداعة، فيها التين والزيتون واللوز وأصناف الفواكه الأخرى[٢].

---

١) ويقال إن كل من يوسف الفهري والصميل بن حاتم قاما بالاستيلاء على أراضي البربر الذين هاجروا إلى العدوة المغربية عقب المجاعة الكبرى التي حدثت بالأندلس بداية من سنة ١٣٣هـ/٧٥١م، وبقيت في ملكيتهما بدون عقود. عبد القادر بوباية، البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري، والحادي عشر الميلادي وهران، ص١١١؛ رجب محمود إبراهيم بخيت، تاريخ الأندلس من الفتح حتى السقوط ،٢٠٠٩، مكتبة الإيمان ،المنصورة، ص١٤٠.

٢) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، الجزء الأول، ص٧٠؛ عبد القادر بوباية، البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري، جامعة وهران، ص١١١؛ إيناس محمد البهيجي، تاريخ دولة الأندلس، مركز الكتاب الاكاديمي ،٢٠١٦، عمان، ص١١٨؛ محمد بشير حسن العامري، الحياة العلمية في الثغور الشمالية الأندلسية المجاورة للممالك الإسبانية (٩٥-٤٨٤هـ)،الطبعة الأولى ٢٠١٦، ص٦١.

ممـا سـبق يتبـين أن تـأثير المجاعـات لـم يكـن مقتصـرا علـى الحالـة الاقتصـادية والنفسـية فقـط، بـل كـان لهـا تـأثير سياسـي كبيـر، وهـذا بسـبب استغلال بعض أصحاب النفوس الضعيفة من الأهالي لمثل هذه المواقف، وقيامهم بالاستقلال بالولايات، وليس هذا وفقط، بل قام بعض الطامعين باستغلال الموقف والسيطرة على بعض المدن والحصون؛ مما أدى إلى زيادة سوء الحالة النفسية لدى الأهالي.

وكانت هذه هي الظروف التي ظهر فيها عبد الرحمن الداخل بالأندلس، وتولى إمارة الأندلس بعدها مباشرة، وتكررت في عهده المجاعات مرة ثانية بعد حوالي عشر سنوات من المجاعة الثانية .

ففي عام ١٤٧هـ/٧٦٤م وقع قحط عظيم في جميع بلد الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل فقد قال مؤلف مجهول: "إنه في سنة ١٤٧هـ كان قحط عظيم عام في جميع الأرض"[١].

وقد يرجع سبب هذا الفقر الشديد والذى شمل الأرض إلى الثورات والفتن الكثيرة التي قامت في هذه السنة بالأندلس؛ ففي هذه السنة وجه الأمير عبد الرحمن الداخل موليه بدرًا، وتمام بن علقمة[٢] في جيش إلى طليطلة، وبها هشام بن عذرة[٣] ثائر؛ فحاصراه حتى سئم أهل طليطلة الحصار؛ فكتبوا إلى بدر وتمام وطلبوا منهم الأمان مقابل تسليم ابن عذرة وغيرهما من الثوار،

---

١) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق: عبد القادر بُوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٦٦.

٢) تمام بن علقمة الثقفي أول حُجاب عبد الرحمن الداخل، ذو العمر الطويل.
المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شرح: مريم قاسم طويل، الجزء الرابع، ص٣٨.

٣) هشام بن عذرة الفهري من بنى عم يوسف الفهري، آخر ولاة الأندلس، وكان والده قد تولى ولاية الأندلس سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م، وكان هشام واليا على مدينة طليطلة التي كانت موطنًا للفهريين.
مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، مجريط ،١٨٦٧، ص٩٢؛ مدحت محمد عبد الحارث، الرهائن السياسيون في الأندلس، الطبعة الأولى، ٢٠١٨، ص١٨٦.

وكانوا يدًا واحدة وتم تسليم الثوار، وخرج بهم تمام إلى قرطبة وانتهى أمرهم بالصلب، وكتب إلى البلدان بفتح طليطلة [١].

والسؤال الذى يطرح نفسه هل تداركت الحكومة أمر المجاعات مبكرًا في هذا الوقت ووضعت خطة له أم لا ؟

في حقيقة الأمر لقد تداركت الحكومة الأموية الأمر منذ البداية، وكان لها دور لا ينكر في الأندلس في تلك الفترة، والفترة التي تسبقها، وهذا الدور كان جزءًا من خطة وضعتها الحكومة من أجل الاستصلاح ومساعدة الفلاحين؛ فقد بدأ الاستصلاح الزراعي مبكرًا في الأندلس، وهذا منذ عهد عبد الرحمن الداخل بسبب ما قاموا به من إنجازات، والتي من أهمها أنهم في أوقات المجاعات أو عند نقص الغذاء بسبب الجوائح أو الفتن والحروب كانت الدولة توزع الغذاء على الناس، خاصةً المزارعين بأجر زهيد، كما أنشأت للإشراف على ذلك مصلحة حِسبة الطعام أو ديوان الطعام، كما أن الأمويين كانوا يأمرون بعقر الجراد وهو دبيب؛ ليحافظوا على الزراعات [٢].

المجاعات في عهد الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م) :-

لقد كانت فترة حكم الأمير الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م) ثالث أمراء الدولة الأموية [٣]حوالى ستة وعشرين عامًا، وفى خلال تلك الفترة وبعد مرور حوالى تسع سنوات حدثت مجاعة، ففي عام ١٨٩هـ/ ٨٠٤م كانت المجاعة والوباء بإفريقية والمغرب والأندلس ذهب فيها ثلثا الناس، وتوافق معها أيضًا أن انتشر الوباء، كما تصادف في هذا العام أن قتل

١) ابن عذارى، البيان المغرب، تحقيق : بشار عواد مغروف، ص٦٣ ؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص١٨٤.

٢) عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، الطبعة الأولى ،١٩٨٣، دار الشروق، بيروت، ص١٨٥.

٣) الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية.

الحكم بن هشام الربضي اثنين وسبعين رجلًا من أشراف أهل قرطبة وعلمائها وصلحائها وفقهائها وصلبهم؛ لأنه نُقِلَ إليه عنهم أنهم أرادوا الخلاف عليه والاستبدال به؛ فخافه الناس وذعر منه جميع أهل الأندلس، وقتل فيهم الفقيه أبا زكريا يحيى بن مضر القيسي، كبير القدر في العلم والدين والورع [١] .

مما سبق يتبين لنا أن عام ١٨٩هـ عام لم ينساه أهل الأندلس بسبب ما حدث فيه من مجاعات وأوبئة أفسدت كل شيء، والتي عكرت أمزجتهم وصفو حياتهم، ويبدو لنا أن الحكم الربضي قد تعامل مع الأمر بجدية وهمة وعزيمة صادقة، وأكبر دليل على ذلك أنه رغم خطورة الأمر إلا أنه لم يستمر فترة طويلة؛ فإنه لم يتخط هذا العام.

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد حدثت مجاعة ثانية بعد مرور اثني عشر عامًا من المجاعة الأولى؛ ففي سنة ١٩٧هـ/ ٨١٢م حدثت مجاعة كبرى عمت كل شيء بالأندلس، وكانت شديدة لدرجة جعلت الحكم يتصدق فيها بأموال كثيرة للضعفاء والمساكين وعابري السبيل المنقطعين، وعلى الرغم من ذلك مات في تلك المجاعة خلق كثير، خاصة بمدن شرق الأندلس؛ لما عانوه من ضروب الحرمان والبؤس، حتى اضطر البعض منهم إلى عبور البحر نحو المغرب، ويقال: إن السبب الأول لحدوث هذه المجاعة هو انحباس المطر طوال موسم الزراعة. قال تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا**﴾ [هود: ٥٢]، وقد ذكر فضلَ الأميرِ الحكم فيها عباسُ بن ناصح الجزري، فقال في شعر له:

نَكد الزمانُ فأمنت أيامه ... من أن يكون بعصره عُسرُ

طلعَ الزمانُ بأزمة فجلا ... تلك الكريهة جوده الغمر [٢]

---

١) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص١٨١؛ محمد بشير العامري، دراسة حضارية في التاريخ الأندلسي، الطبعة الأولى ،٢٠١٢م، ص٤٧١؛ محمد بشير حسن العامري، تاريخ بلد الأندلس في العصر الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٥٨.

٢) ابن حيان القرطبي، المقتبس، تحقيق : محمود على مكى، ص٩٢.

فقال ابن عذارى: "وفى سنة تسع وتسعين ومئة كانت المجاعة التي عمت الأندلس، ومات أكثر الخلق جهدًا".

كما أنه في نفس هذا العام قام عم الحكم عبد الله البلبيسي بغزوة مشهورة وشنيعة ببرشلونة[١].

مما سبق يتبين لنا أن المجاعة هذه المرة قد تسببت في خلق طبقة كبيرة من الفقراء والمساكين والضعفاء الذين لا يملكون قوت يومهم، وطبقة أخرى من المحرومين البؤساء، كل ذلك أثر بشكل كبير على الحالة النفسية لكل من الأمير نفسه الذى أراد تخليص دولته وطبقات شعبه من مثل هذه الظواهر، وأيضًا تأثرت الحالة النفسية لعامة الناس؛ مما جعل الحكم الربضي يتدخل في الأمر بأقصى سرعة؛ للبت فيه، ونجح إلى حد كبير .

المجاعة في عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٩هـ/٨٢٢-٨٥٢م):

لقد تفخم مُلك الأندلس في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٣٩هـ/٨٢٢-٨٥٢م)[٢]؛ وهذا لأن عهده يعتبر بداية للنهضة الثقافية والحضارية بالأندلس، فكم كان محبًا مولعًا بالثراء والأبهة، وعاشقًا بالفنون والآداب، وفى ظل كل هذا لم ينس العمران؛ فشيد القصور والمتنزهات والجسور والمساجد وغيرها،

١) حيث كان ببرشلونة ألفى المشركين قد حلوا بها يوم احتلال الحكم عبد الله البلبيسي، وكان يوم الخميس، فأراد من معه الحرب، فمنعهم حتى إذا كان في اليوم الثاني يوم الجمعة وأمر بتعبئة الكتائب، ثم نادى في الناس، وركب هو ومن معه، وتمكنوا من أكتاف المشركين وهزموهم، وبعد القضاء عليهم نصب قناة طويلة، وأمر بالرؤوس، فجمعت بالقناة، وغطت المياه. مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: وترجمة: لويس مولينا، الجزء الأول، مدريد ،١٩٨٣، ص١٣١؛ ابن عذارى، البيان المغرب، المجلد الثاني، ص٨٧؛ ابن عذارى، البيان المغرب، تصحيح: رينحرت دزى، ج٢، ص٧٦؛ نغم عدنان أحمد الكركجي، الأزمات الاقتصادية في الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص١٧٠.

٢) أبو المُطَرِّف عبد الرحمن بن الحكم، المعروف – أيضًا – بلقب عبد الرحمن الأوسط .

وكل هذه الحركة العمرانية الكبيرة احتاجت منه مبالغ هائلة، وتسببت في أن قويت الجبايات بالأندلس، وزاد مال الخراج بعهده .

فقال ابن حيان إنه في" أيامه قويت الجبايات بالأندلس، وزاد مال الخراج، واتُخذت أزمة
الدواوين، التي عقدت بها الوظائف الصحاح، المُستنة على أهل البلاد، وصيرت عدولا بين العمل والرعية " [١] .

وبموضع آخر في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط اعتدل الملك بالأندلس، واستوسع مال الجباية، فانتهى إلى ألف ألف دينار في السنة، وكان مقتناه لا يزيد على ستمائة ألف دينار كل سنة[٢].

فترتب على كل هذا أن حدثت مجاعة عظيمة وخطيرة بالأندلس كان لها آثار وخيمة على الاقتصاد الأندلسي؛ ففي عام ٢٠٧هـ/٨٢٢م نال أهل الأندلس مجاعة شديدة، وكان لها سببان رئيسان، الأول منهما: انتشار الجراد بالأرض وأكله الغلات وترديده بالنواحي والجهات؛ فترتب على ذلك مجاعة عظيمة، والثاني: توقف المطر وانحباسه، ويقال: إنه بلغ مُدى القمح في بعض الكور ثلاثين دينارًا، واستسقى فيها أهل قرطبة مرات عدة .

مما سبق يتبين لنا أن مجاعة عام ٢٠٧هـ لها عدة أسباب، منها ما هو بشرى، والأخر طبيعي؛ فأهمهما: البذخ الذى عاش فيه عبد الرحمن الأوسط، والذى كان سببًا بشريًّا رئيسًا لهذه المجاعة؛ فقد ترتب على عملية الإنفاق الكبيرة التي قام بها عبد الرحمن الأوسط قيامه بتعويض ذلك عن طريق الضرائب الباهظة التي فرضها على الأهالي، والتي أدت إلى إرهاق الأهالي، وانتهت بحدوث عجز وفقر أدى إلى حدوث مجاعة، ولم يكن ذلك السبب الوحيد؛ فكانت هناك أسباب أخرى طبيعية وهو أيضًا سبب رئيسي ومباشر في

١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق : محمود على مكى، ص٢٩٢.
٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق : محمود علي مكى، ص٢٩٢.

حدوث المجاعات بالأندلس، وهو انحباس ماء المطر، والسبب الثالث: انتشار الجراد وأكله للغلات، كل ذلك أدى بالنهاية إلى حدوث مجاعة عظيمة[١] .

وإضافة إلى كل هذا حدوث وقعة بالش أو بالس، التي كانت بين عبد الرحمن الأوسط وجند البصراة، وكان سببها أن الحكم كان قد بلغه عن عامل اسمه ربيع القومس Comes[٢] المتقلد لأمور العجم بقرطبة أنه ظلم أبناء أهل الذمة؛ فقبض عليه وصلبه قبل وفاته، فلما توفى وتولى مكانه ابنه عبد الرحمن سمع الناس بصلب ربيع، فأقبلوا إلى قرطبة من النواحي يطلبون الأموال التي كان ظلمهم بها؛ ظنًا منهم أنها ترد إليهم مرة أخرى، وكان أهل البيرة [٣] أكثرهم طلبًا وإلحاحًا فيه وتألبوا، فبعث إليهم عبد الرحمن من يفرقهم ويسكتهم، فلم يقبلوا ودفعوا من أتاهم، فخرج إليهم جمع من الجند وأصحاب عبد الرحمن فقاتلوا جند البيرة ومن معهم، وقُتلوا قتلًا ذريعًا، ونجا الباقون منهزمين، ثم طلبوا الأمان بعد ذلك، وانتهى الامر بقتل الكثير منهم . وليس

---

١) محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني "ت٦٣٠"، الكامل في التاريخ، المجلد الخامس، راجعه : محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤٦٩-٤٧٠؛ أنور الزناتي، حامل لواء التاريخ في الأندلس ابن حَيَّان القرطبي، المنهل، ٢٠١٤، ص٩٦؛ إسماعيل سامعي، تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي، ص١٠٢.

(٢) القُمصُ: في المسيحية أحد أصحاب المراتب الكنسية، وهو أعلى من القس، والجمع قمامصة، كان المستعربين يخضعون لرئيس عام لهم تعينه الحكومة المركزية يدعى Comes، ويطلق عليه العرب اسم قمص، وفى بعض الأحيان المدافع أو الحافظ .
المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، مادة: "قمص" طبعة ١٩٩٤، ص٥١٥؛ أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، الطبعة الثانية ٢٠٠٨، ص١٩٥.

٣) وبكورة البيرة : الجبل المسمى بشلير، الذى لا يزول عنه الثلج شتاء ولا صيفًا، وفحص البيرة مستطيل، وعدد قراها مائتان وسبعون قرية، ومن حصونها حصن المنكب، وهو حصن قديم منيع . مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٦٩.

هذا وفقط؛ بل قد حدث في هذه السنة أن قامت ثورة بمدينة تدمير[١]، وهي فتنة بين المضرية واليمانية، وانتهت بوقعة تعرف بيوم المضارة، قتل منهم ثلاثة آلاف رجل، ودامت الحرب بينهم سبع سنين.

والسؤال هنا: ما موقف عبد الرحمن الأوسط من هذه المجاعة الشديدة؟

لم يتجاهل عبد الرحمن الأوسط هذه المجاعة في ظل هذه الظروف المحاطة به؛ فكان له دور كبير في التخفيف من آثار المجاعة، فأمر بإقامة صلاة الاستسقاء في العام نفسه، وهى سنة عن الرسول -ﷺ- فعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: " شكا الناس لرسول الله-ﷺ- قحوط المطر، فأمر بمنبر، فوضع له في المصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه، قالت عائشة: فخرج رسول الله -ﷺ- حين بدأ حاجب الشمس فقعد على المنبر، فكبر وحمد الله -ﷺ- ثم قال: "إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، لا إله إلا الله، يفعل ما يريد، اللهم أنت الله، لا إله الا أنت، الغنى ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغًا إلى حين"، ثم نزل وصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول[٢].

---

١) كورة من كور الأندلس سميت باسم ملكها تدمير. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١٣١.

٢) لمزيد من التفاصيل: الفضل أحمد بن علي/ابن حجر العسقلاني "ت٨٥١هـ"، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٢٤؛ سعيد بن علي بن وهف القحطاني، صلاة الاستسقاء، ص٢٥.

كما أنه عمل على تحسين علاقته بأئمة تيهرت (تاهرت)[١] الرستميين بالرغم من الاختلاف المذهبي من أجل ضمان إمداد رعيته بالغلال لا سيما القمح، وقد داومت سفن الأندلسيين على زيارة موانئ إمارة الرستميين، منها: تنس[٢]، ووهران[٣]، كما قام بإمداد الضعفاء والمساكين من أهل قرطبة[٤] .

والمتأمل في مجاعة عام ٢٠٧هـ يتضح له توافر معظم الأسباب الطبيعة والبشرية والمتسببة فيها، وهى انحباس ماء المطر، وانتشار ظاهرة الجراد، والحروب والفتن والثورات، وفرض الضرائب الباهظة على الأهالي، ولكن الشيء الملفت للنظر أكثر هو طرق عبد الرحمن الأوسط المتعددة والمختلفة في التخلص من هذه المجاعة، من تَصَدُّقٍ على الفقراء والمساكين، وإقامة

---

١) تاهرت : في سفح جبل يسمى قزول، وعلى نهر كبير يأتيها من ناحية الغرب، ولها نهر آخر يجرى من عيون، يجتمع منه شرب أرضها وبساتينها، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج. الحميري، الروض المعطار، ص١٢٦.

٢) تنس: مدينة عليها سور، ولها أبواب عدة، وبعضها على جبل قد أحاط به السور، وهى مدينة فوق الصغيرة، وليس على البحر، وبها فواكه حسنة، وهي من أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم . أبو القاسم بن حوقل النصيبى، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص٧٨.

٣) وهران: هي مراسٍ لا مدن لها مشهورة كمرسى عطا، وليس به أحد يسكنه، وهي مدينة حديثة، ولها سور، وماؤها من عين ماء جارية بها، وغلاتهم من القمح والشعير، والمواشي عندهم كثيرة، ولهم مرسى في غاية السلامة والصون، وليس له مثيل في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى ؛ فقد كنفته الجبال، وله مدخل آمن . ابن حوقل، صورة الأرض، ص٧٩.

٤) محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني "ت٦٣٠"، الكامل في التاريخ، المجلد الخامس، راجعه : محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤٦٩-٤٧٠؛ أنور الزناتي، حامل لواء التاريخ في الأندلس ابن حَيَّان القرطبي، المنهل، ٢٠١٤، ص٩٦؛ إسماعيل سامعي، تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي، ص١٠٢.

الصلاة والحث عليها، وفي الوقت نفسه إقامة علاقات مع دول مجاورة؛ للتخلص من هذه الأزمة.

كما وقعت بعدها بست سنوات عدة أحداث، ففي سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وقعت سيول عظيمة وأمطار متتابعة بالأندلس، وقد تضررت بالدرجة الأولى مدن الثغر الأعلى؛ فتهدمت معظم الأسوار في هذه المدن، كما فسدت قنطرة سرقسطة، وفي هذا العام نفسه أرسل عبد الرحمن جيشًا إلى برشلونة وكان بها المشركون، وقاتل أهلها، وأقام الجيش هناك شهرين(١).

وفى عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م قد عم القحط والجراد الأندلس؛ ليؤدي بأهل الأندلس إلى مجاعة عظيمة، ولم يقتصر أثرها على البشر، بل لحقت المواشي أيضًا التي لم تجد ما تقتات عليه فهلكت، فضلًا عن احتراق الكروم والزروع؛ لقلة المطر، وتأثير الجراد، فزاد في المجاعة وضيق المعيشة والحرمان، حتى اضطروا إلى جلب المؤن من المغرب.

ومن الكوارث أيضًا هذا العام أنه هاجت ريح شديدة وتنزل غيث وابل، وقلعت الريح العاصف في هذا اليوم كثيرًا من شجر الزيتون وملخت أغصانه، وكسرت كثيرًا من الشجر غيره، وكان هول الريح عظيمًا وتأثيرها سيئًا (٢).

مما سبق يتبن لنا الأثر النفسي السيء وتأثيره على الأهالي آنذاك بسبب تدمير النبات والحيوان؛ لندرة الطعام بسبب انتشار ظاهرة الجراد؛ مما أدى إلى الحرمان الشديد؛ الأمر الذي جعل الأهالي يطلبون المعونة من بلاد المغرب، وهذا لم يكن بالأمر الهين عليهم فيعتبر حل مؤقت، ولم يدم طويلًا .

---

١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٤٨٨.

٢) ابن حيان، المقتبس في تاريخ الأندلس عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام "٢٧٥هـ-٣٠٠هـ"، تحقيق: إسماعيل العرب، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ص١٦٨. أنور الزناتي، حامل لواء التاريخ في الأندلس، ص٩٦؛ نغم عدنان الكركجي ،الأزمات الاقتصادية، ص١٧٢.

ومن جملة الخسائر التي كانت في عهد عبد الرحمن الأوسط حدوثُ سيل عظيم بالأندلس سنة ٢٣٥ هـ، والذى خرب ست عشرة قرية من قرى إشبيلية[١].

الوباء في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ – ٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)

لقد استمر عهد الأمير محمد حوالى خمسة وثلاثين عامًا قضاها في مقاومة الثورات والاضطرابات المتلاحقة . وفي عهده عانت البلاد من قحط شديد، رافقه وقوع المجاعة، وذلك في عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م، واستمرت هذه المجاعة حتى عام ٢٦٠هـ/٨٧٣ حسب كلام ابن عذارى حيث قال: "وفي سنة ثلاث وخمسين ومئتين كانت بالأندلس مجاعة عظيمة متوالية"[٢].

مما سبق يتضح لنا الأثر النفسي السيء للأهالي أثناء هذه المجاعة فترة السبع سنوات؛ وهذا لطول المدة، لما نتج عنها من فقر شديد، ترتب عليه سوء الحالة الصحية والنفسية أيضًا، وبالتالي وفاة عدد كبير من الأهالي.

فمات بسببها أعداد كبيرة من الناس، وكانت أشدها ضراوة على الناس السنة الأخيرة عام ٢٦٠هـ. قال ابن عذارى "وفي سنة ستين ومئتين كانت المجاعة التي عمت الأندلس، ومات فيها أكثر الخلق" [٣].

وقال ابن الأثير "... والأندلس غلاء شديد، وعم غيرها من البلاد، وتبعه وباء وطاعون عظيم، هلك فيه كثير من الناس ..."[٤].

مما سبق يتضح لنا أنه خلال الخمسة وثلاثين عامًا التي تولى فيهم الأمير محمد حدثت مجاعتان شديدتان وطويلتان؛ حيث إنهما استمرتا فترة طويلة،

---

١) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص١٤٥.

٢) ابن عذارى، البيان المغرب، تحقيق : بشار عواد، ص١١٦.

٣) ابن عذارى، البيان المغرب، تحقيق : بشار عواد، ص١١٨.

٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، راجعه : محمد يوسف الدقاق، المجلد السادس، ص٢٤٩.

وهي حوالي سبع سنوات، أثرت بشكل كبير على الأندلس وأهلها، وكان هذا بسبب الغلاء الشديد التي انتشر في تلك الفترة، وكانت نتيجته حدوث طاعون في البلاد ترتب عليه موت وهلاك أعداد كبيرة من البشرية، ليس بسبب المرض من المجاعات والأوبئة فقط؛ بل قد يكون السبب النفسي أكبر وأشد في حصاد أعداد كبيرة من البشرية، وقد يكون ذلك بسبب الثورات والاضطرابات المتلاحقة.

و قد ترتب على هذه المجاعة كثير من النتائج، مثل: غلاء الأسعار، وقلة الأقوات، وانتشار الوباء في البلاد. ويبدو أن تأثير هذه الأزمة خلال تلك السنوات كان شديدًا؛ فانتشر في مدينة قرطبة السرقة وأهل الشر بذلك معاناة الأهالي في المدينة؛ مما أدى إلى غضب وتذمر الأهالي، فرفعوا شكواهم إلى الأمير محمد، الذى كان له رد فعل سريع وقوي، فقام بتولية إبراهيم بن الحسين بن عاصم[١] أحكام السوق والشرطة؛ للتصدي لأهل الفساد، وأعطاه الإذن بصلب وقتل المفسدين دون الرجوع إلى رأى فقيه أو أمير، وقد عُرف عن ابن عاصم الشدة والصرامة؛ فبدأ بمحاسبة الناس، وقتل من يؤتى به على إنه من أهل الفساد، حتى تجاوز الحد فكان بين يديه من المصلوبين عدد عظيم، ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ فإنه في العام نفسه خرج الحكم ابن الأمير محمد غازيًا إلى جرنيق Guernia[٢]، فجال في أرض الأعداء، وحل على حصن جرنيق، وحاصره حتى فتحه عنوة .

---

١) إبراهيم بن حسين بن عاصم بن كعب بن محمد بن علقمة بن عدى الثقفي من أهل قرطبة، يكنى بأبي إسحاق، سمع من أبيه وغيره، وله رحلة سمع فيها، وتصرف في أحكام الشرطة والسوق أيام الأمير محمد. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ٢٠١٨، ص٧.

٢) جرنيق: يعنى الممر الضيق. فائزة حمزة عباس عثمان الصوفي، التحديات الخارجية للأندلس في عصر الإمارة ١٣٨-٣١٦هـ، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، دار زهران للتوزيع، الأردن، ص٧٨.

والسؤال الذى يطرح نفسه: هل كان هذا كل ما قام به الأمير محمد ابن عبد الرحمن ؟

لقد كان للأمير محمد دور كبير وعظيم؛ فقد قام بالتغلب على مشكلة المجاعة وحلها، بأن قام بحفظ المنتوج عن طريق قيامه ببناء حصن إستيرش[١]؛ لحفظ الغلال القادمة من بعض مناطق الأندلس، كمدينة سالم[٢].

مما سبق يتبين لنا دور الأمير محمد في التصدي للمجاعة لما لها ولعواقبها من تأثير نفسى كبير على الأهالي، لدرجة جعلتهم يستغيثون به لإنقاذهم وإنقاذ أولادهم مما هم فيه.

كما تبين لنا مدى حنكة الأمير محمد في إيجاد حلولٍ للتخلص من هذه الأمور، مثل قيامه بتعيين شخصيات قوية وصارمة، تستطيع أن تتعامل مع الموقف بجدية وعنف؛ للقضاء على ظاهرة الفساد التي انتشرت بسبب المجاعة .

كما أنه بذل قصارى جهده في القضاء على مثل هذه الظواهر، كالسرقة وغيرها؛ ولذا أعطى عامله أوامر صارمة لا رجعة فيها بقتل وصلب من يقوم بذلك.

---

١) حصن إستيرش(Esteras) ، ويقع بأحواز مدينة سالم، إلى الشمال الغربي منها، وقد بناه الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ؛ لحفظ غلال مدينة سالم، ولإمدادها بالمؤن وقت الحاجة . كمال السيد أبو مصطفى، دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة، مركز الإسكندرية للكتاب ،١٩٩٧، ص١٠٥.

٢) مدينة سالم Medinaceli : قاعدة الثغر الأوسط ، وتقع إلى الشمال الشرقي من حصان مدريد، وفي سنة ٣٣٥هـ كان ابتداء بناء مدينة سالم بثغر الأوسط". محمد بشير حسن العامري، تاريخ بلد الأندلس في العصر الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٠٩.

المجاعات في عهد المنذر بن الأمير محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ/ ٨٨٦-٨٨٨م):-

كان عهد المنذر حوالي سنتين، وعلى الرغم من هذه الفترة القصيرة إلا أنها لم تخلو من المجاعات؛ ففي عام ٢٧٤هـ كان القحط الشديد؛ فاستسقى الناس، فنزل ثلج كثير، ولم ينزل غيث ثم استسقوا مرارًا، فلم يمطروا، فخامر الناس القنوط، فلما دخل من فبراير بعض أيام سقى الناس وارتفع الباس، فاستبشروا بفضل الله وأعلنوا بشكره، فقال الشعراء في مدح المنذر:

نزل الحيا المحيي وطابت أنفس ... إذ كان سوء الظن فيها يهجس
أحيا الإله عباده من بعد ما ... كانت من القنط النفوس توسوس
متلافيا فيه بعائد رحمةٍ ... لولا عوائدها طوتنا الأبؤس
ملك الملوك تقدست أسماؤه الحس ... نى وعز جلاله المتقدس

ومنها

بالمنذر الميمون طاب زماننا ... وبطيب دولته تطيب الأنفس

إلى قول

خذها أمين الله وابن أمينه ... من شاكر في الشكر ليس يُدلس[1].

مما سبق يتبن لنا أن هذا الشعر عبر في وجازة عن مدى المأساة التي كانت تعيشها البشرية في عهد المنذر، ومدى سوء الحالة النفسية لدرجة جعلت الشاعر يوصف الناس وكأنهم أموات دبت الحياة فيهم بنزول الغيث وارتاحت الأنفس، ومن بالغ سوء الحالة النفسية كانت توقعاتهم بعدم الخروج من هذ الأزمة، حتى تدخلت قدرة الله – ﷻ– وأخرجتهم من هذا اليأس والوسواس، وقد قال الشاعر أنه لولا رحمة ربنا – ﷻ– لطوى البأس الناس. كما بين لنا الشاعر مدى الدور العظيم الذى قام به المنذر في تحسين الحالة النفسية للبشرية، فقال: إنه بطيب دولته ارتاحت الأنفس وطابت.

---

١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢، ص١٣٧.

المجاعات والأوبئة في عهد عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م):-

على الرغم من قصر فترة حكم الأمير عبد الله بن محمد، وهي مدة حوالى خمسة عشر عامًا إلا أنها كانت مكتظة بالمجاعات والأوبئة والطواعين؛ ففي عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م حلَّ بالأندلس الوباء، وقد سبق هذا الوباء مجاعة شديدة اضطر الناس معها إلى أكل بعضهم بعضًا بعد أن فقدت أقواتهم؛ فانتشر المرض والوباء، وعلى أثر ذلك قتل الكثير من الناس، حتى استحال إحصاؤهم، فكان يدفن في القبر الواحد أكثر من شخص، عجز معها تغسيل من مات منهم والصلاة عليه، فكانوا يدفنون الموتى من غير غسل ولا صلاة؛ لقلة القادرين على القيام بذلك، إلى أن وصل الحال بالناس إلى أن أكل بعضهم بعضًا، ولذا ذهب أعداد لا تحصى من البشر، فكانت محنة شديدة ثقيلة الوطأة على الناس، حتى اشتهرت تلك السنة بسنة لم أظن – من شدة المحنة ظنوا أنهم لم يخرجوا منها –، ويبدو أن السبب في ذلك انحباس المطر(١).

مما سبق يتبين لنا أن الأندلس تعرضت في هذه السنة لمجاعة شديدة لدرجة جعلت الناس يأكلون بعضهم بعضًا، وترتب عليها حدوث وباء شديد تسبب في موت وهلاك عدد لا يحصى من الأهالي، لدرجة جعلتهم يصعب عدهم وحصرهم، وكان لها تأثير نفسى شديد وخطير على الأهالي؛ حيث إن

١) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س.كولان وليفي بروفنسال، الجزء الثاني، ص١٠٢؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢، تحقيق: بشار عواد، ص١٥٨؛ نغم عدنان أحمد الكركجي، الأزمات الاقتصادية في الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الكتاب الثقافي، ص٧١؛ خالد بن عبد الكريم بن حمود بكر، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة ١٣٨هـ/٣١٦هـ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٩٩٣، ص١١٤.

المجاعة من أكبر الكوارث التي تؤثر على الحالة النفسية للبشرية، ويبدو أن السبب الأساسي هو انحباس المطر وعواقبه المدمرة .

فقد قال صاحب مؤلف مجهول: إنه في سنة ٢٨٨هـ كان الوباء والموت والمرض بالأندلس؛ فهلك بها من الناس ما لا يحصى عددهم، كان يدفن في القبر الواحد عدد كثير من الناس؛ لكثرة الموت، وقلة من يقوم بهم من غير غسل ولا صلاة [١].

مما سبق يتبين لنا أنه لم يمر ثلاث سنوات إلا وازدادت الأحوال سوءًا بتكرار الوباء مرة أخرى بعد عام ٢٨٥هـ، وكان له عواقب خطيرة، منها: هلاك عدد لا يحصى من الأهالي بالمرض والموت، مما أثر تأثيرًا كبيرًا جدا على عادات شرعية وإسلامية أصلية وفروض فرضها الله –سبحانه وتعالى– علينا، وهذا للتخلص من كثرة أعداد الجثث، وهي دفن أكثر من شخص في قبر واحد، دون أن يتم تغسيله والصلاة عليه .

ولم يمر سبع سنوات حتى حدثت مجاعة كبرى عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م نتيجة احتباس المطر ونتج عنها كارثة، وهي موت عدد كبير من أهل الأندلس، وفرار عدد آخر إلى بلاد المغرب، وكانت منطقة جيان من أكثر المناطق تضررًا بهذه المجاعة، وأطلق على هذا العام سنة جوع جيان، عانى الناس خلالها الكثير؛ فمات بها كثيرون، ورحل عن الأندلس نحو المغرب قسم آخر؛ هربًا من قسوتها، أما سبب تسميتها فقد يعود إلى أن باكورة المجاعة بدأت من مدينة جيان حتى نسبت إليها [٢].

---

١) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص١٥٦.

٢) ابن حيان، المقتبس في تاريخ الأندلس عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام "٢٧٥هـ–٣٠٠هـ"، تحقيق: إسماعيل العرب، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ص١٦٨؛ أنور الزناتي، حامل لواء التاريخ في الأندلس، ص٩٦؛ نغم عدنان الكركجي، الأزمات الاقتصادية، ص١٧٢.

والواضح لنا مما سبق أن هذه المجاعة قد بدأت من مدينة جيان؛ ولذلك سميت باسم المكان الذى انطلقت منه، ثم امتدت لباقي المنطقة، وكانت عواقبها شديدة أيضًا، مثل: موت أعداد كبيرة من الأهالي؛ الأمر الذي كان سببًا في سوء الحالة النفسية للبشرية، مما اضطرهم إلى ترك البلاد والفرار منها لبلدان أخرى .

ولم تمر سنتان على هذا الوضع السيء حتى كان الكسوف العظيم في سنة ٢٩٩هـ، كسفت الشمس كلها في يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شوال؛ فظهرت النجوم وكان بعد صلاة العصر؛ فبادر أكثر أهل المساجد بأذان المغرب وصلوا، ثم انجلت بعد ذلك، وعادت قدر ثلث أو نصف ساعة، ثم غربت، وأعاد الناس صلاة المغرب، وفيها توفي الفقيه بقى بن مخلد [١]، وفيها غلب الشيعي على جميع افريقية [٢].

مما سبق يتضح لنا تكرار المجاعات والأوبئة في عهد الأمير عبد الله، ولم تذكر لنا المصادر أي دور لعبد الله في التصدي لهذا الوباء في تلك الفترة؛ مما تسبب في تفاقمه وتكراره، ولكن الشيء الملفت للنظر هو اهتمام الأمير عبد الله بالطب والأطباء، والدليل على ذلك هو أن عهده شهد ظهور عدد من الأطباء، منهم الطبيب إسحاق النصراني، الذى اشتهر بالطب في قرطبة، وقد استفاد أهل الأندلس كثيرًا منه في خدماته الطبية، والطبيب ابن ملوكة النصراني[٣].

وكأن الأمير عبد الله يرى أن اهتمامه بالطب فقط هو المنقذ والمخلص له ولدولته في تلك الفترة .

---

١) أحمد بن بقى بن مخلد بن يزيد القرطبي الأندلسي، قاض، كان شبابه في مستشاري الأمير عبد الله بن محمد الأموي، ولى قضاء قرطبة ٣١٤هـ، كان خطيبًا بليغًا . أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني القيرواني "ت٣٦١هـ"، أخبار الفقهاء والمحدثين، وضع حواشيه: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٣.

٢) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص١٥٦.

٣) أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي، المعروف بابن جلجل "ت٣٧٧هـ"، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥، ص٩٧.

المجاعات والأوبئة في عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م):

يعتبر عصر عبد الرحمن الناصر من العصور المليئة بالنكبات والكوارث، على الرغم من أنه استطاع إخماد الكثير من الثورات والفتن الداخلية، كما أنه عمل على تأمين حدود بلاده؛ ليحد من أطماع الممالك المسيحية أعداء الشمال وأعداء الجنوب، وبفضل أعماله العظيمة انتعشت البلاد في عهده هذا الانتعاش الذى مكّنه من التصدي لكل الأزمات التي واجهته .

وقد ذكر ابن حيان أول هذه الكوارث بقوله: " إنه في سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م كانت المجاعة بالأندلس التي شُبهت بمجاعة عام سنة ستين، فاشتد الغلاء، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغًا عظيمًا لم يكن لهم عهد بمثلها، وفشا التباغض والتقاطع بين ذوى الأرحام، وعم الجوع الأندلس كلها، ودام نحو سنة كاملة، أهلك فيها خلقًا كثيرًا، وبلغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنانير درهم دخل أربعين – يقصد أن الثلاثة دنانير بقيمة أربعين درهم-، وهنا وقع الوباء في الناس، فكثر الموتان " هو الموت العام " في أهل الفاقة والحاجة حتى عجز عن دفنهم . وكثرت صَدقات الناصر لدين الله في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة وعلى المتعففين عن المسألة وصدقات أهل الحسبة من رجال المؤتسين به؛ فنفع الله بهم كثيرًا من خلقه، وكان حاجبه بدر بن أحمد مُدبر دولته أفشاهم صدقة، وأعظمهم مؤاساة؛ فنعش الله به أمته وعدا إصر هذه المجاعة وضيق الأحوال السلطان عن تجريد صائفة وإغزاء جيش لما بالناس من الجهد؛ فأخذ الناصر لدين الله في شأنه بالوثيقة، وعول على ضبط أطرافه وتحصين بيضته، والإرصاد لأهل الخلاف والخلعان خلال معاقلهم ومجال مساربهم؛ إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم لا يفترون عن العدوان على من مر بهم من رفاق المسلمين وطالبي المعيشة وجالبي الميرة، فلم يجدوا منفذا إلى ما طمعوا فيه من إساءة . ونفع الله بذلك كله الكافة، وعاث الموتان في هذه الأزمة، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمائها

وخيارهم، وقَصَر المؤرخون بيانهم لكثرتهم إلى من مات من أشكالهم ببلاد الأندلس البعيدة ممن لم يأخذه إحصاء ولا اتصلت عدة" .

بيد أن المرض سرى إلى الجميع، وطال علماء الأندلس وخيارهم، لدرجة جعلت كثرتهم حالت دون ذكر أسمائهم، هذا بالإضافة إلى من مات بأماكن بعيدة في البلاد عجز عن إحصائهم ومعرفة أعدادهم؛ لبعد المسافة [١].

مما سبق يتضح لنا هذه الكارثة حدثت في عصر عبد الرحمن الناصر بعد توليه الحكم بثلاث سنوات، وبدأت هذه المجاعة بغلاء في الأسعار وزادت حاجة الناس، مما ترتب على ذلك من ظهور بعض السلوكيات السيئة، مثل: كره وتباغض الناس لبعضهم بعضًا، وتقاطع لصلة الأرحام، وهذا قد يكون بسبب ما وصلوا إليه من كره وعدم تقبل بعضهم بعضًا، أو بسبب الحالة الاقتصادية الصعبة التي وصل إليها الناس في تلك الفترة، أو خوفًا من انتقال العدوى، وهذا بسبب الوباء الذى ترتب على المجاعة . ودامت هذه الحالة لمدة سنة، وخلال هذه السنة مات أعداد كبيرة من الأهالي؛ مما أدى إلى توتر وقلق وذعر الأهالي، وكان للناصر دور كبير؛ فلم يقف مكتوف الأيدي، بل بذل قصارى جهده من أجل الخروج من هذه الأزمة؛ لذا كثرت صدقاته على من يستحقها، كما قام حاجبه بدور كبير وعظيم من أجل التبرع والتصدق على المحتاجين، كما قاموا بمواساة الأهالي وتدعيمهم بسبب سوء حالتهم النفسية، وفي ظل هذه الظروف والمحنة الكبيرة لم ينسَ الناصر تأمين بلاده وحدودها من أي خطر خارجي .

وعلى الرغم من الدور العظيم الذى قام به الناصر ورجال دولته في التصدي لهذه المجاعة وهذا الوباء المتلاحقين إلا أنه ترتب عليهما موت

---

١) ابن حيان القرطبي، المقتبس، تحقيق: ب. شالميتا وف. كورينطى وم. صبح وغيرهما، الجزء الخامس، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط، مدريد ١٩٧٩، ص١٠٩-١١٠-١٢٤؛ نغم عدنان الكركجي، الأزمات الاقتصادية في الأندلس، ص٧١.

وهلاك عدد كبير من الأهالي، خاصة من طبقة الفقهاء والعلماء بقرطبة، وصعوبة إحصائهم بسبب كثرتهم.

فذكر مؤلف مجهول أنه في سنة ثلاث وثلاثمائة كانت بالأندلس مجاعة شبهت مجاعة سنة ستين ومائتين؛ وبلغت الحاجة بالناس مبلغا لا عهد لهم بمثله، ووقع الوباء والموتان في أهل الفاقة حتى كاد أن يعجز عن دفن الموتى[١].

وكان من الشخصيات التي ذكرتها المصادر وتوفيت في هذا الوباء أحمد بن بيطير[٢]، من أهل قرطبة، الذي توفي بذلك الطاعون سنة٣٠٣هـ/٩١٥م، ومما زاد الطين بلة ما حل ببعض المناطق في الأندلس في السنة نفسها من قيام الممالك المسيحية بقيادة شانجة بن غرسية بن ونقة البشكنسى[٣] صاحب بنبلونة بالهجوم على أهل مدينة تطيلة[٤]؛ فقتل خلقًا كثيرًا من أهلها وممن

١) مؤلف مجهول، قطعة من تاريخ عبد الرحمن الناصر
Folio 18 del ms. Fragmentario de la Cronica Anonima de Al- Nasir,p50.

٢) يكنى بأبي القاسم، وهو مولى محمد بن يوسف بن مطروح مولى عتاقة، كان حافظًا وفقيهًا. ابن حيان، المقتبس، تحقيق : شالميتا، ص١٢٤؛ أبو الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق : بشار عواد معروف، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، تونس، ص٦٨ ؛ نغم أحمد الكركجى، الأزمات الاقتصادية في الاندلس، ص١٧٣.

٣) ابن عم أردون بن أذفونش ملك الجلالقة، وهو الملك من قبل أردون شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ،٢٠١٢، ص١٩٠.

٤) تطيلة Tudela : مدينة بالأندلس في جوفى وشقة، تقع في جنوبي جبل الشارة، تقع في شرق الأندلس، وهي مدينة عظيمة أزلية، طيبة الماء والهواء، حسنة البناء، وهي على نهر ابرة، وعليها قرى كثيرة، وهي كثيرة الخيرات والفواكه. الحميرى، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : إحسان عباس، ص١٣٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تصحيح : محمد يوسف الدقاق ،ج٥، ص٢٤٧؛ محمد بشير العامري وأريج كريم حمد العتايى، الحياة العلمية في الثغور الشمالية الأندلسية المجاورة للمماليك الإسبانية، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص٣٩

جاورها من أهل القرى وأسر أميرها [١]، ومما زاد من هول المجاعة أن اضطر الأمير عبد الرحمن الثالث إلى وقف عملياته العسكرية؛ فلم يسير أي صائفة في تلك الأزمة، لما كان في الناس من ضيق وضعف، واكتفى بضبط أطراف البلاد والمدن؛ خوفًا من اعتداءات خارجية، والتصدي لقطّاع الطرق، الذين كانوا لا يفترون عن التعرض للمسلمين وجالبي الميرة والمؤن من التجار خاصة، كما لم يكن من الغريب أن تدفع تلك الظروف القاسية بالثائر عمر بن حفصون لطلب الصلح بعد أن ضاق من حوله ذرعًا بسوء الحال جراء القحط والمجاعة، فضلا عن اعتبارات أخرى أسهمت بتقديم الطاعة لسلطة الأمير عبد الرحمن الثالث [٢].

والواضح لنا أنه مما زاد من تفاقم الأمور وصعوبتها شيئيين هامين، الأول منهما: هجوم الممالك المسيحية على بعض الأماكن الهامة في الأندلس، الأمر الذي تطلب من عبد الرحمن الناصر تجهيز الحملات والرد على هذا الهجوم، والأمر الثاني: وقف عبدالرحمن الثاني لكل حملاته العسكرية وانسحابه منها، مما ترتب عليه خسائر كثيرة .

وعلى الرغم من ذلك قام بتكملة دوره تجاه الأزمة بتكريس كل جهده داخل بلاده وحدودها والقضاء على قطاع الطرق وحماية التجارة والتجار . وكان من محاسن هذه الأزمة انسحاب بعض الثائرين ولجوئهم للصلح؛ خوفًا من المجاعة والوباء.

---

١) عبد الله بن محمد بن لب موسى القسوي . ابن حيان، المقتبس، تحقيق : شالميتا، ص١٢٤.

٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق : شالميتا، ص١٢٤؛ أبو الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق : بشار عواد معروف، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، تونس، ص٦٨؛ نغم أحمد الكركجي، الأزمات الاقتصادية في الأندلس، ص١٧٣.

وبعد مرور أربع سنوات من هذه المجاعة أصاب الأندلس والمغرب وإفريقية في عام ٣٠٧هـ/٩١٩م وباء وطاعون حتى عجز الناس عن دفن موتاهم(١).

وقد تسبب في موت كثير من الناس، الأمر الذي عجزوا معه عن دفنهم لكثرتهم.

وبعد حوالي سبع سنوات، أي: في سنة ٣١٤ هـ، كان القحط الشديد، واستسقى الناس فيها أحمد بن بقى بن مخلد صاحب الصلاة، وأنقذ الخليفة الناصر لدين الله إلى الكور في الاستسقاء فوافى بقرطبة نزول غيث مغيث يوم رفع جثة المارق سليمان بن عمر بن حفصون صلبًا فقالت الشعراء في ذلك أشعارًا كثيرة منها:

سحاب يمور الغيث منها وديمة دماء العدى تهمى به وتمور
غياثان فينا واكفان من الحيا ولكن ذا رجس وذاك طهور
وذاك نجيع ليس يقبله الثرى وذا ناجع يسرى به ويغور
تدنست الدنيا به فتطهرت بطون لها من رجسة وظهور(٢).

وبعدها بعشر سنوات شهد عام ٣١٧هـ/٩٢٩م مجاعة جديدة في البلاد نتيجة انحباس المطر، وضرر الزرع، وغلاء الأسعار على نحو ما حدث في عام ٣٠٣هـ/٩١٥م؛ فعهد الناصر لدين الله بجامع حضرته قرطبة بالاستسقاء، فابتدأ ذلك في خطبة الجمعة التي يليها، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الثالث عشرين من شهر مارس، فلم يسق الله البلاد، واستمر القحط

١) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق : ج. س.كولان وليفي بروفنسال، الجزء الثاني، دار الثقافة، بيروت، ص١٠٢؛ محمد بشير العامري، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، ص٤٧١.
٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق : شالميتا، ص٢٠٥-٢٠٦.

فاتهمت الناس أنفسهم، وخرجت كتب الناصر لدين الله إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء على نسخة واحدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله -ﷻ- إذ بسط رزقه وأغدق نِعَمه وأجزل بركاته أَحَبَّ أن يُشكر عليها، وإذا زَواها وقبضها أحبَّ أن يُسْألها ويُضرع إليه فيها، و"**هو الرزاق ذو القوة المتين**"، "**والتواب الرحيم**"، "**الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون**"، "**وهو الذى ينزل** الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد"، فأوجبت به الرغبة إليه، عز وجهه، فيه والخنوع لعزته، والاستكانة له، والإلحاح في المسألة فيما احتبس به، والتوبة من الأعمال المنكرة التي توجب سخطه، وتبذل نقمه، وتستر وجه رضاه، تعالى جِده . وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء في المسجد الجامع يوم الجمعة، والجمعة الثانية التي تليها، إن أبطأت السقيا، والبروز يوم الاثنين بعدهما بجماعة المسلمين عندنا إلى مُصلاهم، أو يأتي الله قبل ذلك بغيثه المَعِي عنه، ورحمته المنتظرة منه المرجوة عنده، فمُر الخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك، ويأخذ به عن قِبَلَه من المسلمين، وليحملهم ذلك المحمل، ولتكن ضراعتهم إلى الله -تعالى- ضراعة مَنْ قد اعترف بذنبه ورجا رحمة الله، والله غفور رحيم، وهو المستعان لا شريك له، إن شاء الله". وأبطأت السماء فتردد الاستسقاء في المسجد الجامع وبمصلى الربض بعد الاستسقاء الأول مرات، ثم برز الناس إلى مصلى المصارة أيضًا تارات، والسماء في كل ذلك ممسكة لما قدر الله -تعالى-[1].

وبعد مرور ثلاثة عشر عامًا من المجاعة السابقة توقف الغيث بقرطبة وأعمالها في سنة ٣٣٠هـ، وعم القحط، ووجب الاستسقاء؛ فشرع قاضى

١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق : شالميتا، ص٢٥٠-٢٥٢.

الجماعة بقرطبة صاحب الصلاة بها محمد بن عبدالله بن أبى عيسى[١] في الاستسقاء في خطب الجمعة، وواصل الاستسقاء في خطبتي الجمعتين، ثم تمادى القحط، وبرز الناس أول بروز كان له في هذه السنة إلى مصلى الربض للاستسقاء، ثم برز الثانية إلى مصلى الربض، ثم برز الثالثة إلى مصلى المصارة، ثم برز الرابعة و الخامسة إلى مصلى المصارة، ثم برز السادسة إلى مصلى المصارة؛ فصدر الناس عن المصلى هذا اليوم وقد هبت ريح باردة قابلتهم ونشأ نوء غليظ، وسحاب كثيف؛ فنزل الثلج من ضحوة هذا النهار إلى عشيته، وارتفع فوق الأرض حتى غطاها، وعلا عليها فسواها، ثم نزل المطر مع الثلج من وقت الظهر إلى وقت العشاء، ثم أقلع دون أن يروى الأرض، فعاد القاضي محمد بن عبدالله بن أبى عيسى إلى الاستسقاء في خطبة يوم الجمعة والإلحاح في الدعاء؛ فسقى الله عباده يوم السبت بعده سقيًا متصلًا، روى به بلاده، فشرع الناس في الزريعة، وحطت الأسعار، وسكن النَفار، ثم نزل الغيث من يوم الثلاثاء بعده لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى بانثِرار وانهمار–نزول المطر بشدة– قطع العُذر وقضى الأوطار[٢].

كما حدث في العام نفسه أن بدت في الأفق جمرة نارية مستعلية في السماء، يستطير لها شعاع شديد، يلتمع في سعف النخل وذرى مصانع القصور، توهمها الناس التماع الشمس عند الشروق، حتى إذا انبلج الصبح

١) محمد بن عبد الله بن أبى عيسى قاضي الجماعة بقرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر، وقد تولاه سنة ٣٢٦هـ . كان حافظًا للرأي، متصرفًا في علم الإعراب ومعانى الشعر. أبو العباس أحمد بن محمد/المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها، تحقيق : مريم قاسم طويل، ويوسف على طويل، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٠٢.

٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق : شالميتا، ص٤٧٦-٤٧٩.

رقت تلك الجمرة، فلما متع الضحى غابت، وظهرت تلك الغداة ناحية الغرب قوسان مستطيران في الأفق، يحجبهما منه إلى ناحية الغرب [١].

كما تفيد المصادر بتواصل ظاهرة الجراد في الأندلس، وتدميره للمحاصيل الزراعية حيث كان ينتج عنها مباشرة المجاعات، وعلى سبيل المثال عام ٣٢٩هـ/٩٤٠ ٣٣١هـ/٩٤٢م، والذي محى الجراد خلالها ما على الأرض من زرع وكلأ، وجندوا الناس لقتله [٢].

ويبدو أن طاعونا قد وقع بالأندلس سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، غير أننا لا نعلم عن تفاصيله شيئًا سوى معلومة وردت ضمن ترجمة أحمد بن دحيم القرطبي الذي توفي في هذه السنة بالطاعون، وكان من أهل العلم، حافظًا لمذهب مالك، تولى قضاء طليطلة إلى أن توفي، كما نزل بقرطبة برد عظيم وزن الحجر منه رطل، وأكثر ما قتل الطير والوحوش والبهائم، وكسر الثمار، وأهلك جملة من الناس. وفي عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م وعلى عهد الخليفة نفسه وقع الوباء العظيم في المغرب والأندلس، وأودى بأرواح خلق كثيرة [٣].

المجاعات والأوبئة في عهد الحكم المستنصر بالله ٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م):.

وفي خلافة المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) حدثت المجاعات في عام ٣٥٣هـ/٩٦٤م، أي: بعد توليه الحكم بثلاث سنوات،

---

١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق : شالميتا، ص٤٧٩.

٢) ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق : محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص٢٤٢ ؛ إسماعيل سامعي، تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي، مركز الكتاب الجامعي، ٢٠١٨، ص٨٥.

٣) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس ،١٦٧ ؛ نغم عدنان الكركجى، الأزمات الاقتصادية، ص٧٢.

وخاصة بقرطبة، وكانت عبارة عن مجاعة مستطيرة، و كان سببها انحباس المطر في موسم الزراعة؛ إذ ما لبث المطر في العام التالي والذي روى الزرع والأرض؛ فتلاشت بنزوله هذه الأزمة، غير أن الحكم كان له دور كبير وعظيم في هذه الأزمة، فقد مد يد العون والمساندة إلى الضعفاء والمساكين بما يقيم أرماقهم، وأجرى نفقاته عليهم بكل ربض من أرباض قرطبة والزهراء، وبعد مرور خمس سنوات تكررت المجاعة مرة أخرى؛ فشهد عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م حدوث مجاعة عظيمة في البلاد عانى منها كثير؛ فكان للحكم دور كبير لا يقل عن الدور الذى قام به من قبل؛ فأمر الحكم أن يفرق "يوزع" في ضعفاء قرطبة اثنى عشر ألف خبزة في كل يوم حتى أتى الأقبال [١] .

مما سبق يتبين لنا مدى معاناة الأهالي في كلتا المجاعتين السابقتين بعهد الحكم المستنصر وتأثيرهما الخطير على الحالة النفسية؛ مما جعل الحكم يقوم بوضع خطة بأقصى سرعة؛ للتخلص من هذه الأزمة، فقام بالإشراف على أمر توزيع الصدقات والإعانات للمحتاجين، وتقديم يد العون والمساندة، وفتح بابه لكل من يحتاجه.

المجاعات والأوبئة في عهد هشام المؤيد بالله (٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٩م):

وبعد سيطرة الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (٣٧١-٣٩٢هـ/٩٨١-١٠٠٢هـ) على مقاليد السلطة تجرعت البلاد ويلات المجاعة من جديد؛ ففي سنة ٣٧٣هـ كان بالمغرب والأندلس وباء عظيم، وموت شنيع، ومطر عام وسيول، وفيها تحرقت أسواق مدينة فاس ونهبت، وفي سنة ٣٧٦هـ حدث أن زلزلت قرطبة زلزلة عظيمة؛ فقد استمرت المجاعة ثلاث سنوات من عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م إلى عام ٣٨١هـ/٩٩١م، فقال مؤلف مجهول: "وفي سنة ٧٩ كانت المجاعة الشديدة بالمغرب وإفريقية والأندلس دامت ثلاث سنين، فكان

١) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص١٧٣.

المنصور يعمل كل يوم بقرطبة من أول المجاعة إلى أن انقضت اثنتين وعشرين ألف خبزة فيفرقها في الضعفاء كل يوم، فاتسع بها أهل الحاجة، وكان للمنصور في هذه المجاعة من المآثر والرفق بالمسلمين وإطعام الضعفاء، وإسقاط الأعشار، وتكفين الأموات، وإغاثة الأحياء ما لم يكن لملك قبله".

من هذا النص يتضح لنا الدور العظيم للمنصور في الحد من تأثير هذه المجاعة النفسي على الأهالي بقيامه بالرفق وتخفيف ما وصلوا إليه بإغاثتهم، ومساعدة الضعفاء، وتكفين أمواتهم، والصلاة عليهم؛ لتخفيف العبء النفسي على الأهالي .

أما ابن الخطيب فيذكر أنها حدثت في عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م؛ فقال: إن محمد بن أبي عامر أحب الوقوف على حاصل الأطعمة عندما اعتزم على غزو برشلونة سنة ٣٧٤هـ، فارتفعت جملته إلى مائتي ألف مُدى ونيف (زاد عليها) عليها، قال: فلحقه العجب بذلك حتى قال: "أنا أكثر طعامًا من يوسف صاحب الخزائن"، واعتورته السنون الشدائد المتوالية من سنة ٣٧٨ فانتسفت أطعمته بسبب كثرة الإنفاق، وحدثت المجاعة لدرجة جعلتهم يفكرون في الجواز للمغرب، حتى أغاث الله هذه البلاد وأخرج أرزاقها، وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئًا من الأطعمة، والظاهر أن هذه المجاعة كانت شديدة التأثير حتى قاربت مخزونات السلطة من المؤن والأقوات على النفاذ؛ لكثرة الإنفاق منها دون أن يكون بالإمكان تعويضه، حتى وصل الحال بالمنصور العامري للتفكير بالجواز إلى العدوة المغربية لخصوبتها، غير أن نزول الغيث أغاث البلاد، وأكلات الأرض، وحطت الأسعار وحيي الناس، وانتعشت البهائم والدواب[١].

١) لسان الدين ابن الخطيب السلماني، تاريخ إسبانية الإسلامية أو أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ص٩٩؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص١٧٣-١٨١؛ نغم عدنان الكركجي، الأزمات الاقتصادية في الأندلس، ص١٧٤-١٧٥.

ويتضح لنا أن المنصور بن أبي عامر كان يشرف بنفسه على أطعمة الدولة وعلى من يقوم بتحصيلها، وارتفعت لدرجة كبيرة، وعلى الرغم من كل هذه الحصيلة إلا أن الدولة تأثرت وحدثت بها مجاعة بسبب كثرة الإنفاق، وقد كانت هذه المجاعة هذه المرة أشد وطأة؛ لأنها قاربت مخزون الدولة، ونحن نعلم جيدا مدى التأثير النفسي الشديد عندما يراود خاطرنا بأن مخزون الدولة أوشك على الانتهاء، لدرجة جعلت الأهالي يفكرون في الهروب إلى مكان أمن.

ومن محاسن الخليفة هشام الثاني (٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٨م) أن عمل جاهدًا من أجل مساعدة الأهالي، وتحسين حالتهم النفسية، وإدخال السعادة والفرح عليهم بالعمل على التخفيف المالي عن كاهل الرعية، وذلك في ٣٦٦هـ بأن أسقط ضريبة الزيتون المأخوذة في الزيت بقرطبة، وكانت على الناس ومستكرهة؛ فسُروا بذلك أعظم سرور، وفي عام ٣٨١هـ/٩٩١م انتشر الجراد بالأندلس، وأتلف المحاصيل الزراعية، وأثر على المزارعين؛ فأمر المنصور بجمعه بعد قعده وجعل جمعه وظيفة على كل أحد قدر طاقته، وأفرد له سوقًا لبيعه، وتمادى أمر هذا الجراد ثلاث سنين [١]. وكان لظاهرة الجراد عواقب كثيرة، منها المجاعات؛ لأنها تغذت على ثمارهم ومحصولاتهم . وكانت هذه آخر المجاعات التي حدثت في تلك الفترة .

١) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص١٨٢؛ محمد بشير العامري، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، ص٤٧٣.

جدول بالمجاعات التي حدثت في فترة عصر الخلافة الأموية :-

اســـم الخليفة	المجـــاعة	الســـنة
عبد الرحمن الداخل	١- وقع القحط العظيم في جميع بلد الأندلس.	في عام ١٤٧هـ/٧٦٤م
عهد الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م)	١- كانت المجاعة والوباء بإفريقية والمغرب والأندلس. ٢- عمت بالأندلس مجاعة شديدة.	-عام ١٨٩هـ/ ٨٠٤م - في سنة ١٩٧هـ/ ٨١٢م
عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٩هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م)	١- نال أهل الأندلس مجاعة شديدة. ٢- وقعت سيول عظيمة. ٣- قد عم القحط الأندلس.	- في عام ٢٠٧هـ - سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م - عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م
الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)	١-كانت بالأندلس مجاعة عظيمة متوالية	-٢٥٣هـ
عهد المنذر بن الأمير محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ/ ٨٨٦-٨٨٨م)	١- كان القحط الشديد	عام ٢٧٤هـ
عهد عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٨-٩١٢م)	١- حل بالأندلس الوباء. ٢- كان الوباء والموت والمرض بالأندلس. ٣-مجاعة كبرى نتيجة احتباس المطر.	-عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م - سنة ٢٨٨هـ -٢٩٧هـ/٩٠٩م
عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله(٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م)	١-كانت المجاعة بالأندلس. ٢-وباء وطاعون. ٣-كان القحط الشديد. ٤-شهد مجاعة جديدة. ٥- عم القحط. ٦- مجاعة .	-في سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م - ٣٠٧هـ/٩١٩م - سنة ٣١٤ هـ - عام ٣١٧هـ/٩٢٩م -٣٣٠هـ - عام ٣٢٩هـ/٩٤٠

	٧-طاعون وقع بالأندلس . ٨- الوباء العظيم.	٣٣٨هـ/ ٩٤٩م - عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م
عهد الحكم المستنصر بالله ٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م)	١-المجاعات . ٢-حدوث مجاعة عظيمة.	-عام ٣٥٣هـ/٩٦٤م - عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م
عهد هشام المؤيد بالله (٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٩م)	١-كان بالمغرب والأندلس وباء عظيم. ٢-المجاعة ثلاث سنوات . ٣- انتشر الجراد وترتب عليه المجاعة .	- سنة ٣٧٣هـ - من عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م إلى عام ٣٨١هـ/٩٩١م - عام ٣٨١هـ/٩٩١م

الخاتمـــــة

مما ســـــبق نســـتنتج الآتي :-

- إن للمجاعات تأثيرًا كبيرًا على كل فئات المجتمع، ولكن هناك بعض الفئات أقل ضررًا من الفئات الأخرى، وهي الفئات الخاصة التي تستطيع إنقاذ نفسها بما يمتلكونه عن طريق الشراء والحفاظ على أنفسهم، على عكس الفئات العامة التي لم تستطع إنقاذ نفسها، وينتهى الأمر بهلاكها؛ ولذا يكون ضررها كبير.

- كان للمجاعات تأثير كبير سيء على الحالة النفسية للبشرية؛ مما دعاهم إلى ابتداع وابتكار طرق يستفيدون منها وقت الشدة، منها: تخزين الطعام تحت الأرض، واختيارهم لبعض الأشجار التي تنفعهم في أكثر من غرض خاصة العلاج .

- على الرغم من حدوث الكثير من المجاعات في الأندلس في تلك الفترة إلا أن الخسائر كانت تحت السيطرة كلها، ولم تخرج عن الإطار الطبيعي لها، وهذا لا يعني أنه لا يوجد خسائر، لكنها كانت قليلة، وهذا بسبب الاهتمام بهذا الأمر منذ بدايته، وسيطرة الحكومة عليه.

- كان للمجاعات آثار سلبية كثيرة وايجابية أيضًا، فالسلبية منها واضحة، أما الإيجابية فتنحصر في وعي بعض أهالي المدن، وقيامهم بتأمين وحفظ غذائهم؛ خوفًا من حدوث مثل هذه المجاعات.

- كان للمجاعات والأوبئة تأثير كبير على تغير صورة المجتمع الأندلسي وتحوله إلى صورة أخرى أثرت على بعض ملامحه السياسية الاقتصادية والاجتماعية النفسية.

- اضطرت هذه الظروف الطارئة المجتمع إلى تغيير بعض عاداتهم وتقاليدهم التي اعتادوا عليها، مثل: دفن جثث موتاهم فوق بعضهم بعضا، دون تغسيلهم والصلاة عليهم .

– عانت الأندلس من الأزمات الاقتصادية ذات الأسباب الطبيعية أو البشرية، وفي الوقت نفسه عانت من الفتن والحروب الداخلية، وعلى الرغم من ذلك استطاعت الحكومة التغلب والانتصار والمحافظة على الوضع الأمني للبلاد.

– كان للحكومة الأموية دور كبير وهام في التصدي لأي مخاطر في الدولة والحفاظ عليها وعلى كيانها.

- كان للمجاعات والأوبئة تأثير كبير سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا؛ لما لها من تأثير خطير على القوة العاملة والتجارة والصلوات والاحتفالات الخاصة والعامة، وأيضًا على الحالة النفسية للبشرية، وكان لهذا عواقب خطيرة .
- للمجاعات عواقب خطيرة على الأماكن والسكان؛ فهي تتسبب في تدمير مدن بأكملها بسبب الهجرة؛ حيث يقوم أصحاب الأماكن التي تحدث بها مجاعات بالهجرة من مكان لآخر؛ مما يترتب عليه خلو المكان من أصحابه، وانتقالهم ومعيشتهم بمكان آخر، وما يترتب على ذلك من طمع الغزاة والمعتدين، وتجرئهم في السيطرة على المكان، وتتحول ملكية المكان من شخص لآخر؛ كما يترتب على ذلك خسارة المسلمين لأماكن قد لا يستطيعون تعويضها؛ مثلما حدث بمجاعة عام ١٣٣هـ؛ حيث خسر المسلمون أماكن هامة، مثل: ليون، وسمورة، وسلمنقة، وشقوبية، وغيرها .
- تسببت الأوبئة والمجاعات في التأثير على سلوكيات البشرية بالسلب والإيجاب، فبالنسبة للسلب صدور بعض السلوكيات غير المحببة والشاذة والتي يتعفف منها الناس، مثل التسول، وأما بالنسبة للإيجابي فقد جعلتهم يحتاطون أكثر، ويتعلمون التدبير وعدم الإسراف والنظافة، والأهم أنها علمتهم التقرب بشدة من الله –ﷻ– كي يرفع عنهم هذه الشدة .

والله ولي التوفيق